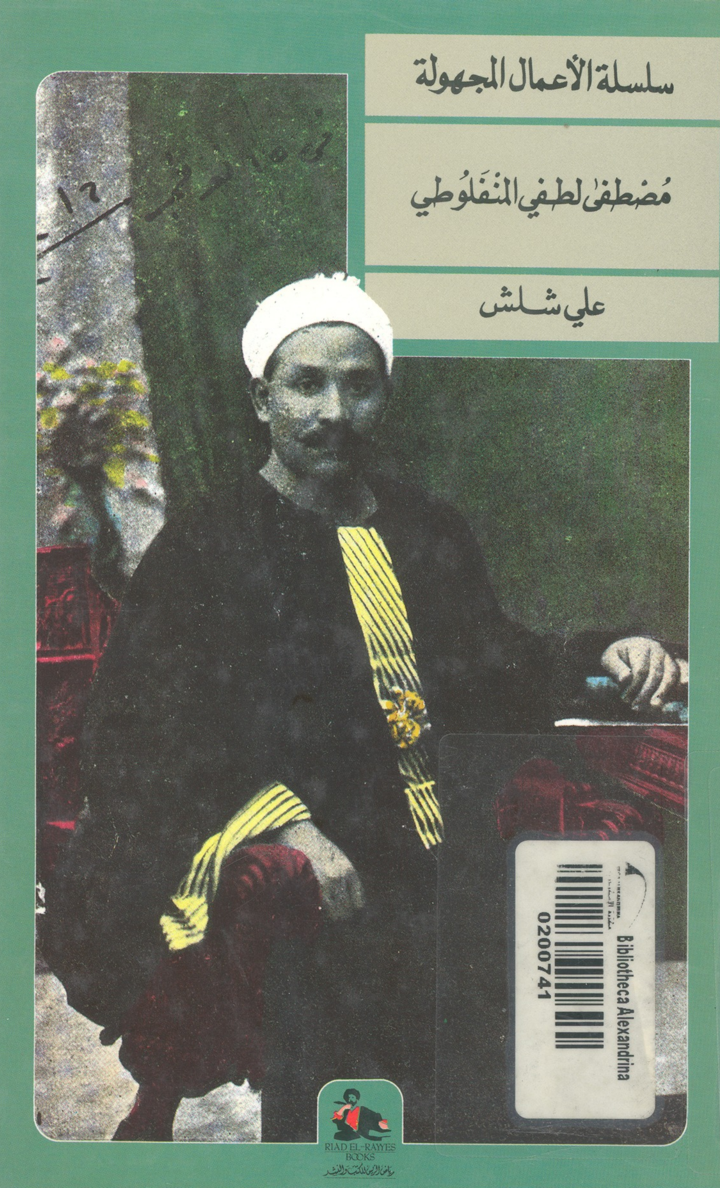


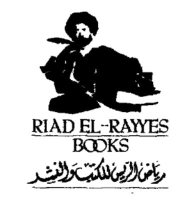
سلسلة الأعمال المجهولة
مُصطفى لطفي المنفَلوطي
علي شلش
RIAD EL-RAYYES BOOKS



سلسلة الأعمال المجهولة

مُصطفى لطفي المنفلوطي

تحقيق وتقديم الدكتور علي شلش



4, Sloane Street, London SW1X9LA

The UNKNOWN WORKS OF:

MUSTAPHA LUTFI AL-MANFALUTI

COMPILED AND EDITED

BY

DR. ALI SHALASH

First Published in Great Britain in 1987

4 Sloane Street, London SW1X 9LA

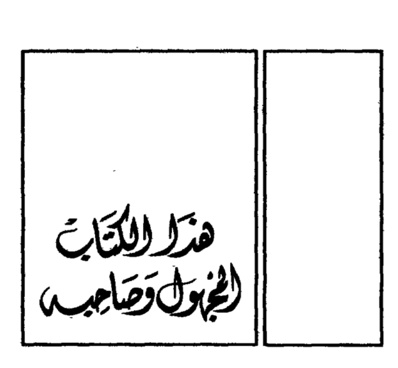
British Library Cataloguing in Publication Data

Al-Manfalouti, Mujstapha Lutfi

The unknown works of Mustapha Lutfi Al-Manfalouti
1. Islam and politics——Middle East
2. Middle East——Politics and government
I. Title II. Shalash, Ali
297'.1977'0956 BP173.7
ISBN 1–869844–76–9

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب


هذا الكتاب
المجهول وصاحبه

لهذا الكتاب المنفلوطي المجهول قصة طريفة معي ، ففي أواخر الخمسينات اشتريت منه نسخة كنت قد رأيتها مصادفة على سور الأزبكية ، ومنذ ذلك الحين احتفظت بهذه النسخة في مكتبتي دون أن أتصفحها ، فقد عددتها من الكتب القديمة التي يشتريها المرء ، ويحفظها دون لمس كأنها قطع أثرية ، وربما صدني عن قراءتها أن اسم المؤلف لم يكن عليها ، ولم تكن عبارة « بقلم كاتب كبير » التي على غلافها تشجع على القراءة ، فما أكثر الكتب التي قد تقع في أيدينا على هذا النحو ، ونودعها أرفف المكتبة دون اهتمام كبير ، ولا سيما إذا كانت ـ كما هي الحال هنا ـ عارية ، لا ذكر فيها لناشر أو طابع !

وذات يوم ، منذ عامين ، كنت أفتش عن كتاب معين على أحد أرفف مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن . وفجأة وقع بصري على نسخة من ذلك الكتاب فذكرني بنسختي السابقة ، ووجدت يدي تمتد إليها ، وأصابعي تقلب صفحاتها . ولشد ما كانت دهشتي حين قرأت قصاصة الورق الملصقة على غلافها الداخلي والمكتوبة بالإنكليزية حول بيانات الكتاب ، فقد جاء في هذه القصاصة أن المؤلف هو المنفلوطي .

غير أني كنت أعلم ، حتى ذلك الوقت ، أن أحداً من دارسي المنفلوطي لم يشر من قريب أو بعيد إلى الكتاب ، وقررت أن أتحقق من الأمر بنفسي مسترشداً بالنتيجة التي توصلت إليها ، وهي نتيجة أيدها في ذهني وجود الانكليز في مصر خلال حياة المنفلوطي ، ومقدرتهم ـ في ذلك الوقت ـ على معرفة حقيقة مؤلف الكتاب ، ثم لجأت إلى الدراسات التي كتبت عن المنفلوطي فلم أجد ذكرا للكتاب ، وقررت مرة أخرى أن أمضي في تحقيق الموضوع .

وبدأت بقراءته على أساس التفسير الانكليزي فوجدته مطابقا له ، وربما لو كنت قرأته يوم اشتريت نسخته أول مرة لتحققت من نسبته إلى المنفلوطي ، فالأسلوب أسلوبه ، والرؤية رؤيته ، والتناول تناوله ، فضلا عما عرفناه عنه من حبه لسعد زغلول وإعجابه البالغ بشخصه ومواقفه .

وقادتني المصادفة ـ مرة أخرى ـ إلى تأييد آخر للتفسير الانكليزي ، ففي الوقت الذي شغلني فيه الموضوع أصدر الصديق الدكتور محمد أبو الأنوار كتابا ضخماً من ثلاثة أجزاء عن المنفلوطي : حياته ونثره وشعره ، وطلبت من الصديق العون ، فأهداني ـ مشكورا ـ الكتاب بأجزائه الثلاثة ، وحين بحثت

فيه عن سر ذلك الكتاب المنفلوطي المجهول وجدته مجلواً بما لا يدع مجالا للشك .

عندئذ قررت ان احققه ، وأن اقدمه إلى القراء ، حتى ينضم إلى زملائه من مؤلفات المنفلوطي . وقد اقتضى ذلك ـ بالطبع ـ ان اعيد قراءة أعمال المنفلوطي وما دار حوله من دراسات وكتابات ، وأن افتح ملف المنفلوطي الذي نسيه الناس أو كادوا ، مستعيناً في ذلك بما صدر عنه من كتب ودراسات .

وقد لاحظت من تتبعي للطبعات المختلفة التي صدرت لكتاب « النظرات » باجزائه الثلاثة ان طبعة ١٩٢٤ من الجزء الثالث ضمت ثلاثة ارباع هذا الكتاب المجهول ، ولكن هذه الطبعة ذاتها صودرت وقتها ، وإن كانت نسخ قليلة منها تسربت الى بعض الأيدي . ولكننا لا ندري ـ على وجه التحقيق ـ إن كانت هذه الطبعة المصادرة قد ظهرت قبل تلك الطبعة المجهولة لهذا الكتاب المجهول او بعدها . والسبب في ذلك أن الطبعة المجهولة ـ التي اعتمدنا عليها هنا في تحقيق الكتاب ونشره ـ لم تشر إلى عام الطبع ولا مكانه ، وإن كنا نرجح انها سبقت الطبعة المصادرة من « النظرات » . وحتى هذه الطبعة الأخيرة لم يلتفت اليها معظم الذين كتبوا عن المنفلوطي ، ولم تعد إليها ـ على سبيل المثال ـ دار الجيل اللبنانية التي أصدرت ما سمته « مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي : النظرات والعبرات » عام ١٩٨٠ . بل إن دار الآفاق الجديدة اللبنانية التي التفتت الى تلك الطبعة حين أصدرت « النظرات » بأجزائها الثلاثة عام ١٩٨٢ لم تحقق ذلك الكتاب المجهول في نسخته المختلفة التي ضمها الجزء الثالث ، وحذفت من مقالاته هوامش مناسباتها ، وهي مسألة جوهرية كما سنرى في نص الكتاب ، فضلا عن أن المحقق الدكتور جبرائيل جبور لم يشر الى الكتاب من قريب أو بعيد .

غير اني وجدت ـ خلال البحث والتنقيب ـ كتابا جمعه وقدمه مريد سوري للمنفلوطي ، اصدره في دمشق عام ١٩٢٥ ، اي بعد وفاة استاذه بقليل . وكان ذلك المريد شاعرا شابا يوم اتصل بالمنفلوطي ، وراسله . واسمه أحمد عبيد . وقد حاول أن يغري أستاذه بتسجيل حكمه وأقواله وكلماته كي يحفظها للأجيال القادمة . ورد عليه المنفلوطي برسالة مقتضبة ، أوردها عبيد مصورة في صدر كتابه . وهذا نص الرسالة المؤرخة في ٢٨ مارس ١٩٢٠ ، وهي رسالة لا تنم عن أن كاتبها هو المنفلوطي صاحب الأسلوب والديباجة :

سيدي الأخ الفاضل

سلام واحترام ، وبعد . فكتاب « العبرات » يطبع الآن في مصر . وهو على وشك الانتهاء . اما الكلمات التي تريدون أن اجمعها من كتبي فسافعل ذلك قريبا إن شاء الله . ومتى تمت اخابركم في شانها .

أشكرك شكرا جزيلا على حسن ظنك بي ، وأثني على همتك ثناءً عاطراً .
وأرجو أن يوفقنا الله جميعا للقيام بخدمة أمتنا ولغتنا .
والسلام على حضرتكم ورحمة الله .

ومن الواضح في هذه الرسالة العادية التي لا تنم عن مكانة صاحبها وأسلوبه أن المنفلوطي فكر في الموضوع ، ولكن القدر لم يمهله طويلا لتنفيذه ، فقام التلميذ نفسه بجمع هذه الكلمات من كتب أستاذه ومؤلفاته المختلفة ، وجعل عنوان كتابه « كلمات المنفلوطي » . وقد ضم إليه كثيرا من المقالات والخطب والأشعار التي ظهرت وقتها في تأبين الأستاذ ورثائه في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد .

ونظرا لطرافة الفكرة التي تكمن وراء مثل هذا الكتاب ، وأهمية الجهد الذي يقدمه ، فقد رأيت أن أستعين بكلماته المنفلوطية ، وأن أضعها كاملة في ملاحق هذا الكتاب المجهول ، وأن أضم اليها مختارات من كلمات المؤبنين ورثائهم نثرا وشعرا دون الإخلال بالنصوص الكاملة لقصائد شوقي وحافظ وبدوي الجبل ، مع زيادة مختارات من مقال للعقاد عن المنفلوطي وآخر لأحمد حسن الزيات . وهكذا تقدم الملاحق صورة لا بأس بها للمنفلوطي وعصره ورجاله . كما تُلقي أضواء لا غنى عنها عند دراسة ظاهرة المنفلوطية في أدبنا الحديث .

وجدت من المناسب أيضا أن أقدم الكتاب بمدخل موجز حول المنفلوطية ، وعلاقة صاحبها بالسياسة ـ لأن كتابه هذا المجهول سياسي ـ والقضية المصرية التي شغل نفسه بها في مقالات الكتاب .

أرجو ـ بعد هذا كله ـ أن يساهم هذا العمل في تحميس الدارسين والنقاد نحو إعادة النظر في تلك الظاهرة الأدبية التاريخية المنقضية ، وأن يقدم لعشاق الأدب نفحة عطرة من الماضي القريب .

علي شلش
لندن ١٩٨٦

١ المنفلوطية : مرحلة انتقال

مهمـا كان الرأي في كتـابات مصطفى لطفي المنفلوطي ، واختلاف النـاس حول قيمتهـا وقـابليتها للقراءة في عصرنا ، فلا شك أن لهذه الكتابات قيمة تاريخية . فهي تشكل مرحلة الانتقال بين الكتابة القديمة والكتابة الحديثة .

وربما كان وضع الكتابتين على هذا النحو يؤدي الى الخلط والتشوه في فهم الكتابة القديمة بوجه عام ، ولا سيما في النثر ، فقد بلغت هذه الكتابة درجة كبيرة من درجات النضج والحداثة على يدي رجل مثل الجاحظ ، بل على يدي رجال آخرين لم يكن لهم نشاط ملحوظ في الأدب مثلما كان لهم في العلوم الانسـانيـة ، ولا سيما في الفلسفة والتاريخ ، مثل الفارابي والغزالي وابن رشد وابن خلدون ، فلم يكن الجاحظ والفارابي والغزالي وابن رشد وابن خلدون ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ يشغلون أنفسهم وقراءهم بالشكل على حساب المضمون كما نقول بلغة اليوم ، أو يشغلونه باللفظ على حساب المعنى كما يقال بلغة يومهم ، ولكن هذا النوع المتقدم من الكتابة الذي قدمه هؤلاء لم يستمر طويلا ، أو يتجاوز ما يسمى في التـاريـخ باسم العصر العبـاسي ، فقد سقطت الكتابة العربية ـ بهذا المعنى ـ تحت سنابك اللفظ والصنعة اللفظية بعد ذلك ، وكانت العصور التالية في التاريخ العربي متخلفة عن هذا المعنى في أقل تقدير ، ثم جاء العصر العثماني عام ١٥١٧ فسجل ـ بوجه عام ـ وفاة الكتابة العربية المتقدمة ، وسيطرة الكتابة الجاهلة إذا صح التعبير ، لأن أصحابها لم يعودوا على صلة بالمتقدمين الأوائل . وهذه الكتابة الجاهلة هي ما نقصده حين نفرق بين الكتابة القديمة والكتابة الحديثة ، لأنها قديمة أيضاً من حيث بعد الزمن ، لا من حيث صلتها بالكتابة القديمة الحقيقية .

حين نقـول « الكتـابـة القديمة » نعني إذن هذا النوع الأخير من الكتابة الذي امتدَّ حتى نهاية النصف الأول من القرن الماضي ، وبعدها دخلت عوامل متعددة إلى الساحة العربية كان على رأسها ظهور الطباعة والصحافة ، وبداية الإطلاع على الكتابة الأوروبية ، والإقدام على طبع الكتابة القديمة ونشرها ، وقد كان من الطبيعي أن تتفاعل هذه العوامل

الثلاثة ، وأن ينشأ من تفاعلها الإقدام على ربط الكتابة بالعصر ، والذات المنتجة لها ، والمعنى الساعية إليه .

وقد بدأ هذا الإقدام على الكتابة الحديثة في مصر بصفة خاصة ، نتيجة عوامل أخرى معروفة ، وجاءت البدايات على أيدي رفاعة الطهطاوي في بعض أعماله ، ومحمد عبده وابراهيم المويلحي ، على سبيل المثال والترتيب التاريخي لظهورهم ، فقد حاول هؤلاء الثلاثة أن يرتبطوا في كتاباتهم بعصرهم وذواتهم والمعاني التي شدتهم إليها ، ورفضوا سجع الكتابة القديمة الميتة ـ حتى نفرق بينها وبين الكتابة القديمة الحية ـ كما رفضوا ما أغرق فيه أصحاب مرحلة الانتقال من الكتابة الميتة الى الكتابة الحية ، أو من الكتابة القديمة (الميتة) الى الكتابة الحديثة .

أين نضع المنفلوطي إذن ؟

لقد عاصر أصحاب الكتابة الميتة وأصحاب الكتابة الحية سواء بسواء . فقد نشأ نشأة تقليدية مثل الطهطاوي وعبده والمويلحي ، ودرس في الأزهر مثل الأولين ، وإن كان لم يتم دراسته .

وحين نقول إن المنفلوطي عاصر هؤلاء فليس معنى هذا أنه من جيلهم ولا من سنهم . فقد ولد بعد عام من وفاة الطهطاوي عام ١٨٧٣[1] ، ولم يعرف محمد عبده أو المويلحي إلا وهما في دور الكهولة ، بعد عودة الأول الى مصر عام ١٨٨٩ وعودة الآخر عام ١٨٩٥ ، فهو قد عاصرهما في السنين الأخيرة من حياتهما ، ولكنه لم يتأثر بهما في الكتابة كثيرا ، وإن كان قد تأثر بهما في الحياة ، فقد أشار مؤرخوه الى صلته بمحمد عبده وتشجيع الأخير له ، ولكن محمد عبده نفسه لم يكن يكتب على طريقة المنفلوطي ، أو حتى يتخيل أنه يستطيع أن يكتب بها ، وإن كان من أشداء المساهمين في إطلاق الكتابة من قيود عبودية اللفظ والصنعة بالرغم من ممارسته للسجع في فترات متقطعة ، ربما على سبيل الفكاهة .

---

(١) اختلف مؤرخو حياته حول سنة مولده ، فقيل إنها ١٨٧٢ ، وإنها ١٨٧٣ ، وهكذا حتى ١٨٧٧ . ونرجح انها ١٨٧٤ ، لأنه سجن عام ١٨٩٧ بسبب القصيدة التي قيل إنه نظمها في هجاء الخديو . ولا نعتقد انه فعل ذلك قبل سن العشرين ، فضلا عن انه نشر مقاله المشهور حول بلوغه سن الاربعين في جريدة « المؤيد » عام ١٩١٤ .

ومن جهة أخرى لم يكن لأسلوب المنفلوطي صلة بأسلوب ابراهيم المويلحي الذي كان يسجع أحيانا ، وكان مثل محمد عبده في ايمانه باطلاق سراح الكتابة ، وكان أيضا على طرف نقيض من محمد عبده في ميله إلى السخرية والدعابة في الكتابة ، مما لم يظهر أثره على المنفلوطي بأي شكل من الأشكال .

ولكن المنفلوطي عاصر أسلوب الطهطاوي ممتدا في تلاميذه ، وعاصر أسلوب عبده والمويلحي ، كما عاصر بعد ذلك أصحاب الكتابة الحية ابتداء من جيل عبده والمويلحي على مستوى الصحافة ، ونعني علي يوسف صاحب جريدة « المؤيد »، إلى جيل تلاميذ عبده والمويلحي على مستوى الصحافة أيضا، ونعني أحمد لطفي السيد وطه حسين والعقاد والمازني ، وكان هؤلاء وأولئك يشتركون جميعا في سمة واحدة مهمة ، هي تحرير الكتابة من رق اللفظ والصنعة ، وربطها بالزمان والمكان والمعنى .

وهذا هو الدرس المهم الذي تلقاه المنفلوطي عن جيل عبده والمويلحي ، ثم رآه ماثلاً بعدهما في تلاميذهما ، أي في أبناء جيله ، ومع ذلك تميز هو نفسه عن هؤلاء وأولئك بطريقة مختلفة في التفاصيل لا في الأساس . فالأساس واحد ، حتى على الرغم من ضعفه أحيانا أمام القديم المتهالك .

اختلاف المنفلوطي في التفاصيل هو سر وقوفه بكتاباته كلها في مرحلة الانتقال بين الكتابة القديمة الميتة والكتابة الحديثة الحية ، أي أنه وقف حيث وقف جيل أساتذته لا جيل تلاميذهم ، على الرغم أيضا من تفوق جيل أساتذته هذا الذي حقق قدراً كبيرا من الثقافة والوعي والخبرة بالحياة والكتابة على السواء . أما ثقافة المنفلوطي فدون ذلك بكثير ، ووعيه بالتراث والتاريخ أقل ، وخبرته في الحياة محدودة ، ومغلقة على عكس تلاميذ أساتذته ابتداء من لطفي السيد إلى العقاد والمازني وطه حسين .

وتثير قراءة أعمال المنفلوطي وتتبع حياته عدداً من الأسئلة التي لم تجد جوابا شافيا فيما يشاع عنه من أحكام . ونكتفي هنا بسؤالين جوهريين يتعلقان بما سميناه « المنفلوطية » أو « الطريقة المنفلوطية » في الكتابة :

لماذا خاصم طه حسين والمازني والعقاد المنفلوطية في حين أنهم يلتقون

معها في الأساس والمنبع ؟

لماذا ذاعت المنفلوطية ذلك الذيوع المدهش خلال الربع الأول من هذا القرن حتى تخطت حدود مصر ، وأصبحت ظاهرة عربية ؟

وقبل أن نحاول الإجابة عن هذين السؤالين يحسن أن نجيب عن سؤال آخر جوهري في هذا السياق :

لقد ذكرنا أن المنفلوطية كانت مرحلة انتقال بين الكتابة القديمة والكتابة الحديثة ، أو بين الكتابة المقلدة للقدماء ، المستوحية لهم ، وبين الكتابة المعبرة عن ذات صاحبها ، وخوالجه ، وعصره ومعانيه ، أو بين الكتابة الميتة والكتابة الحية إذا شئنا الاختصار . ولكننا نضيف أن المنفلوطي وقف بكتاباته على الجسر الواصل بين القديم والحديث بشكل عام . فشعره تقليدي خطابي ، وإن كان لم يخل من التعبير عن الذات . ونثره يستفيد من نثر القدماء مثل ابن المقفع وابن العميد وابن خلدون من حيث مراعاة أسس البلاغة والبيان ، كما لاحظ الزيات . ولكنه يعبر عن نفسه أولا وأخيرا .، وإذا أسقطنا شعره من حسابنا هذا بحكم تقليديته وخطابيته العامتين بقى لنا نثره . ولكن هذا النثر نفسه ينقسم إلى قسمين : قسم أصيل عبر فيه عن فكره ومشاعره ، واتخذ شكل المقال ، وضمَّتها أجزاء « النظرات » الثلاثة وكتابه المجهول الذي نقدمه هنا ، وقسم منقول عبر فيه عن فكر الآخرين ومشاعرهم مع بعض التعديل بالتوضيح أو الحذف أو الاضافة ، واتخذ شكل القصة ، قصيرة أو طويلة ، وضمته كتبه : مجدولين ، الانتقام ، في سبيل التاج ، الشاعر ، الفضيلة . وبين هذين القسمين من النثر يوجد قسم ثالث أقل أهمية اختلط فيه التعبير عن نفسه وعن الغير كما اختلط فيه شكل المقال بشكل القصة ، وضمه كتابه « العبرات » .

ومع ذلك فالقسم الأكبر من النثر المنفلوطي هو القسم الثاني ، وهو أكبر حجما وكمّا وشهرة . فكأن المنفلوطية بَنَتْ شهرتها على القصة المنقولة عن الغير أو المقتبسة . وهذا أحد أسرار الخلاف بين صاحبها وأعمدة الجيل الأصغر سنا مثل طه حسين والمازني والعقاد . وهو أيضا سر الهجوم عليه واتهامه من جانب هؤلاء الثلاثة بصفة خاصة . فقد كانت قصص المنفلوطي ـ مؤلفة أو مقتبسة ـ تغرق في الخيال ، وتسرف في العاطفة ، وتغالي في مواقف الضعف ، وتتمادى في الأحزان والتشاؤم .

كان طه حسين أول مهاجمية عام ١٩١١ . وكان هجومه عنيفا . فقد اتهمه باصطناع الخيال والبعد عن الحقيقة ، والسرقة من الغير ، والتكرار في الألفاظ والمعاني . ومع أن طه حسين اعتذر فيما بعد في كتابه « الأيام » عما عدَّه هو نفسه « فصولاً سمجة » كتبها تحت إغراء الشيخ عبد العزيز شاويش وضغطه ، فقد كان نقده وقتها بمثابة الإعلان عن موقف ذلك الجيل الجديد من المثقفين الذين تحلقوا حول أحمد لطفي السيد وكتبوا في صحيفته « الجريدة » ، وهو موقف خضع ـ كما في حال طه حسين ـ للضغوط النفسية والسياسية ، والتأثر بالثقافة الأوروبية ، والتطلع إلى أدب جديد مختلف .

ثم جاء المازني عام ١٩٢١ فهاجم المنفلوطي هجوماً أعنف في كتاب « الديوان » . وإتهمه بالإدعاء والنعومة والأنوثة والتشاؤم والولع بصيغة المفعول المطلق . وأطلق على أدبه عبارة « أدب الضعف » . وظل على موقفه هذا إلى النهاية ، حتى وهو يرثيه بعد أيام من وفاته في مقال نقلنا بعضه في ملاحق الكتاب .

ومع أن العقاد كان أكثر موضوعية من صاحبيه في نقده للمنفلوطي حتى وهو يأخذ عليه بكاءه وشكواه . فقد نشر في كتابه « مراجعات » عام ١٩٢٦ فصلا سبق أن نشره باحدى الصحف ، اعترف فيه بأن المنفلوطي أحد الذين أدخلوا المعنى والقصد في الإنشاء العربي . وبعد سنوات عدة ـ في أوائل الستينات ـ عاد العقاد فاعترف في كتابه « رجال عرفتهم » بأن المنفلوطي « لا يُعرَف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين من مطلع النهضة الكتابية قبل مولده إلى ما بعد وفاته »[٢] وهذا حكم خطير يلغي أهمية كتابات محمد عبده والمويلحي وغيرهما . ومع أن العقاد لم يفسر ذلك التفرد المنفلوطي الذي لا نظير له فربما كان يعني أن المنفلوطي أول ناثر في مصر ينطلق من العاطفة ، ويعبر عن ذاته ، ويمزج الحقيقة بالخيال . وهذا نفسه هو الأساس الجمالي الذي يجمع بين المنفلوطي وأبناء الجيل التالي ، كالعقاد والمازني وطه حسين ، قبل أن يختلف عن هؤلاء وغيرهم في عدم احتكاكه بالثقافة الأوروبية احتكاكا مباشرا .

إذا كان هؤلاء الثلاثة أنفسهم ـ طه حسين والمازني والعقاد ـ قد

(٢) عباس العقاد : رجال عرفتهم ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ص ٧٢ .

خاصموا شوقي في الشعر ، فلأنهم وجدوا شعر شوقي بعيدا عن ذاته وعاطفته ، كما ينبغي أن يكون الشعر . وما هكذا كان المفلوطي في نثره ، لأن المنفلوطية في أساسها الجمالي ذاتية وعاطفية . والعاطفية أهم سماتها وسر اختلافها عما سبقها من نثر أدبي .

ولو أننا عدنا إلى آراء أدباء مصر وغيرها من البلاد العربية في ملاحق هذا الكتاب الذي بين أيدينا لوجدنا ما يشبه الإجماع على أن المنفلوطي صاحب أسلوب ، ولكنه ليس صاحب فكر عميق ، وأنه عاش على الظواهر والسطوح دون مقدرة على الغوص أو السباحة في الأعماق . وهذه أحكام صحيحة بالطبع . فالمنفلوطية لم تكن فكراً عميقاً يريد صاحبه أن يوصله الى الناس ، وإن كان هو نفسه قد ظن غير ذلك ، وإنما كانت خواطر قام صاحبها بتوصيلها إلى الناس في صورة أنيقة موشاة الإطار ، حظ الطبع فيها أكثر من حظ الصنعة على أي حال .

لقد كتب أحمد حسن الزيّات ، وهو نفسه منفلوطي متطور ، عام ١٩٣٧ :

« كانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودي ، واليازجي ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، والشنقيطي ، قد التمعت التماعة الموت لتنطفيء كلها متعاقبة في العقد الأول من عقود هذا القرن ، فهيأت الأنفس والأذواق إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجده . وكان إخواننا اللبنانيون في مصر وفي أمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربي على الأدب الغربي فأرونا ألوانا من القول وضروباً من الفن لا نعرفها في أدب العرب ؛ ولكنها كانت في الكثير الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب . فأجمناها على نفاستها كما أجمنا أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجمل الجُوف والصناعة السمجة والمعاني الغثة .

وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطي على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة ، وسطع في أندية الأدب سطوع العبير ، ورن في أسماع الأدباء رنين النغم . ورأى القراء الأدباء في هذا الفن الجديد ما لم يروا في فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، وما لا يرون في غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب . »[٣]

(٣) احمد حسن الزيات : من وحي الرسالة ، ج ١ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت ص ٣٨٥ ـ ٨٦

هذه هي المنفلوطية كما يلخصها أحد الذين طوروها فيما بعد . ومع ذلك فقد وجه الزيات اليها نقداً مهما حين ذكر إنها غير قابلة للخلود لسببين هما « ضعف الأداة وضيق الثقافة » ، لأن صاحبها « لم يكن عالما بلغته ، ولا بصيرا بأدبها . لذلك نجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه » ، ولأن صاحبها أيضا لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالا مباشرا بعلوم الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة »[٤] وهذا نقد متجرد على أي حال يضع المنفلوطية في موضعها الصحيح ، حيث قصرت في تحصيل ما عند الشرق والغرب على السواء ، ووقفت على ذلك الجسر الذي يصل بين القديم والحديث ، دون اندفاع نحو إحدى الضفتين . وهذا نفسه ما تفاداه معاصرو المنفلوطي الأصغر سنا ، ابتداء من طه حسين والعقاد والمازني الى الزيات ، الذين نشأوا نشأة تقليدية ، ثم هضموا التراثين العربي والأوروبي ،وتفاعلوا مع تياراتهما ، فخلقوا في النهاية تلك « التوليفة » ، أو الصيغة التي ما زلنا الى اليوم نتجادل حولها ، صيغة « الأصالة والمعاصرة » .

وبالرغم من موضوعية هذه النظرة الى المنفلوطية كما خبرها أحد معاصريها فقد اختلفت نظرة بعض الدارسين لها من غير معاصريها ، مثل ناجي نجيب . ففي سلسلة من المقالات حول أدب المنفلوطي حاول الباحث أن يحلل الظاهرة المنفلوطية ، وأن يردها إلى عواملها الأولية .[٥] وفي إحدى هذه المقالات توصل إلى أن المنفلوطي يفصل بين عالم الخبرة وعالم الوجدان ، ويفضل الانسحاب الى العالم الأخير ، ويمزج بين الحقيقة والخيال ، لأنه لا توجد « حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة » على حد قول المنفلوطي في مقدمة « النظرات » . ويرتب الباحث على ذلك نتيجة مؤداها أن « خيال الشيء أجدى من الشيء » ذاته عند المنفلوطي ، وأن الخبرة النظرية أهم من الخبرة العملية .[٦] ولكن إذا جاء ذلك من واقع عبارات المنفلوطي نفسه ـ كما

---

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٩٠

(٥) راجع مجلة الهلال، عدد سبتمبر ١٩٨٢ وما بعده.

(٦) مجلة الهلال ، يناير ١٩٨٣ ، مقال « خيال الشيء ومصادر الأدب عند المنفلوطي » ، ص ١٢٢ ـ ١٢٧

أرادنـا الباحث أن نعلم ـ فإن كلام المنفلوطي لا يمكن أن نحمله على إطلاقـه ، لأنـه في الوقت الذي يصرخ فيه في مقدمة « النظرات » بأن الخيال له الأثر الأعم في تكوين المجتمع الإنساني ، وأنه لولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب ، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير ، الخ ، فانه ـ أي المنفلوطي نفسـه ـ لا يطبق هذه الفلسفة المثالية القائمة على أن الماهية تسبق الوجود ، وإنما هو يرسل خواطره إرسالا دون أن يقصد بها نفسـه بالضرورة ، وإلا فمـا بالنـا بكثير مما جاء في « النظرات » من ملاحـظات وخواطر تنفي هذا الزعم نفيا مطلقا . ولعل في كلماته التي جمعها مريده السوري ، وجعلناها في ملاحق هذا الكتاب ، ما يؤكد زعمنا من أن المنفلوطيـة لم تقم على أساس أو معتقد نظري ثابت ، لأن هذا يقتضي قدراً كبيرا من شمول الفكر وتماسكه مما كان يفتقر اليه المنفلوطي .

غاية الأمر إذن أن المنفلوطية هي الإنطباعية قلبا وقالبا . فصاحبها يكتب حسب تبدلات مزاجه ، فمرة يبدو ساخطا ، ومرة يبدو بائسا ، ومرة يبـدو سعيـدا ، وفي كل المـرات نجده يرتجل خواطره وانطباعاته دون مراجعتها على أساس أو معتقد نظري معين . ولهذا تتفاوت مقالاته تفاوتا كبيرا في حظها من الدقة ، أو النضج الفكري ، أو الخبرة الواقعية . ولكن يربط بينها ـ في النهاية ـ خيط من النزعة الإنسانية الإصلاحية . أما ما سماه الباحث « رومانسية الأحزان » كمرادف للمنفلوطية فليس تعبيرا دقيقا في الحقيقة ، لأن الرومانتيكية تقوم على عناصر معروفة من بينها الحزن . ولم يكن المنفلوطي يقصر كتاباته على هذا العنصر ، فكل عناصر الرومـانتيكية الأوروبية ظاهرة في أدبه ، ابتداء من الشعور بالغربة ، وحب المرأة والطبيعة ، وإعلاء شأن الخيال والإلهام ، إلى الحزن . بل إن عنصر التمرد والثورية الذي ظهر عند شعراء رومانتيكيين مثل بايرون وشيللى وفيكتور هيجو موجود أيضاً عند المنفلوطي ، ولا سيما في كتابه المجهول عن « القضية المصرية » .

ولكن لماذا ذاعت المنفلوطية ذلك الذيوع المدهش في عصرها ، حتى أصبحت ظاهرة عربية ؟

يقول الزيات مرة أخرى ، في مقاله السابق ، عن صاحبيه طه حسين

وزناتي يوم كان ثلاثتهم يدرسون في الأزهر ، ويترقبون صدور « المؤيد » كل خميس ، إنهم كانوا يقرأون مقال المنفلوطي الأسبوعي « خماس وسداس ، وسباع ، وطه مرهف أذنيه ، وزناتي مسبل عينيه ، والزيات مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف . وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطي الذي اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر »[٧] ثم يضيف : « وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و (اليتيم) وأمثالهما فنطرب للقصة على سذاجتها ، أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته . وسر الذيوع في أدب المنفلوطي ظهوره على فترة من الأدب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ، ويمثل العيوب ، في أسلوب طليٍّ وسياق مطرد ، ولفظ مختار »[٨]

ولعل الزيات لم يكن مبالغا في تصوير هذا الانبهار الذي شعر به مع صاحبيه إزاء ماكانوا يقرأون للمنفلوطي في شبابهم الباكر ، فقد عبر طه حسين عن مثله فيما سنطالعه من كلمات الأدباء في ملاحق الكتاب ، وكذلك صَوّر المازني والعقاد شيئاً من هذا الافتتان بالمنفلوطية عند ظهورها . ولم يكن ذلك قاصراً على مصر وحدها . فقد خرجت المنفلوطية إلى قراء العربية في كل مكان ، واحتفى بها الشباب في المشرق العربي بصفة خاصة . وهذا ما عبر عنه أحمد شاكر الكرمي وعبد القادر المغربي وسامي الكيالي في دمشق ، ورفائيل بطي في بغداد ، وعمر الفاخوري في بيروت ، وغيرهم . ولكن هؤلاء وأولئك وقفوا بالانبهار والافتتان عند حد الطريقة أو الأسلوب لا الفكر . وهذا أمر طبيعي ، لأن المنفلوطية لم تحمل إليهم فكراً عميقاً ، ولم تكن ثورة فكرية بمقدار ما كانت ثروة في الأداء والأسلوب .

هذه الثروة المنفلوطية انتفع بها كثيرون في عصر المنفلوطي وبعده على السواء . بل إن طه حسين نفسه ، الذي شجب المنفلوطية ، تأثر بها ، وكان أسلوبه تطويراً لها من حيث السلاسة والموسيقية . وكذلك كان الزيات . بل إن هذه المنفلوطية أثرت في شباب الجيل اللاحق من الأدباء في مصر ـ بصفة خاصة ـ من أمثال محمود كامل ونجيب محفوظ (في بواكير أعماله) ومحمد عبد الحليم عبد الله . وليس من السهل بالطبع

---

(٧) الزيات : مصدر سابق ، ص ٣٨٦
(٨) المصدر نفسه ص ٣٩٠

أن نضع خطوطا حادة فاصلة بين مرحلة ومرحلة في الكتابة . فالمراحل تتداخل عادة ، ويولد جديدها في حضن قديمها . وقد عاش محمد عبد الحليم عبد الله ـ مثلا ـ في جيل لم يعرف المنفلوطي أو يخالطه ، وإنما عرف كتاباته وخالطها ونشأ عليها ، في حين أن نجيب محفوظ ـ مثلا ـ تخلص بسرعة من أثر المنفلوطي على الرغم من أنه ينتمي لذات الجيل الذي ينتمي إليه عبد الله .

ومـع ذلك ثمـة ما يشبـه الحكم العـام في الدراسـات الحديثة عن المنفلوطي ـ ممـا يؤيده بعض المستشرقين ـ بأن الرجل لم يلعب دورا كبيرا في الحياة الأدبية بمصر بالرغم من شهرته الكبيرة .[٩] وهذا حكم صحيـح في الحقيقـة ، مرجعـه الى أن المنفلوطي نفسـه لم يكن عالى الصوت ، أو صاحب دعوة فكرية أو أدبية خطيرة . ودوره ـ كما رأينا ـ انتقالي ، أسلوبي ، شكلي . فشعره لم يحدث ضجة ولا أثرا . وقصصه ـ مؤلفـة أو مترجمة ـ تجاوزها الجيل التالي له بسرعة . أما مقالاته فمحصولها الفكري محدود . ولكن يبقى منها ـ كما يبقى من قصصه ـ ذلك الأسلوب الذي اجتذب جمهورا عريضا في حينه ، وهو أسلوب يغري بالافتتان والتقليد في المراحل المبكرة من حياة شداة الأدب وعشاقه . وقد تجاوزه ـ من الناحية الفنية ـ أدباء آخرون كثيرون ، يأتي على رأسهم طه حسين وأحمد حسن الزيات . فدور المنفلوطية إذن دور تاريخي ، مضى وانقضى ، وإن كان قابـلا للظهور في بيئة مماثلة للبيئة التي ظهر فيها، إذا استجدت ظروف نشأته وحركته.

يقول مريده السوري الشاعر أحمد عبيد عام ١٩٢٥ أو نحو ذلك:

« هو أحد شعراء الأمة العربية وكتابها، ومن أعظم أركان النهضة الأدبية الحاضرة الذين ساعدوا على رفعة شأن الأدب العربي، وبلوغه الشأو البعيد الذي وصل اليه اليوم. وهو صاحب القلم البديع الجذاب المتفوق في جميع الأغراض والمقاصد، حتى سُمي بحق «أمير البيان». ولمـؤلفـاتـه وجميـع كتبـه الحظوة العظمى في جميع الأقطار العربية. ولأسلوبه تأثير خاص على نفوس القارئين كأنه يكتب بكل لسان، ويترجم عن كل قلب. وقد صار أسلوبه المثل الأعلى الذي يحاول دائماً أن يحتذيه

٩ ـ J. Brugman: An Introduction to the History of Modern Arabic Literature in Egypt. Leiden, Brill, 1984, p. 86

الناشئون والمتأدبون في المعاهد العلمية والأدبية. وميزته الخاصة التي يمتاز بها عن كل كاتب في عالم الأدب العربي في هذا العصر قوة قلمه في باب الفواجع، واقتداره على تصوير النفس الحزينة المتألمة [١٠] ».

ولو أننا نحينا عن هذا الكلام ما فيه من مجاملة المريد للأستاذ، لبقي منه حكم عام صحيح على المنفلوطية وصاحبها، ولكنه حكم مرهون في الوقت ذاته بالتاريخ الذي قيل فيه، أي عام ١٩٢٥ أو ما قبله بقليل. ومعنى هذا أنه حكم على ظاهرة تاريخية انقضت اليوم، ولم يعد له مجال للتصديق إلا اذا ارتبط بتاريخه.

غير أن السؤال الذي سبق أن طرحناه ما زال قائماً:

لماذا ذاعت المنفلوطية ذلك الذيوع المدهش حتى أصبحت ظاهرة أدبية عربية عامة غير محدودة بالقطر الذي أنتجها؟ لماذا أصبحت لمؤلفات المنفلوطي «الحظوة العظمى في جميع الأقطار العربية»، كما قال عبيد ؟ هل يرجع هذا الى تلك الميزة الخاصة التي امتاز بها عن كل كاتب في عالم الأدب العربي في ذلك العصر، ميزة القوة في باب الفواجع والاقتدار على تصوير النفس الحزينة المتألمة على حد تعبير عبيد أيضاً ؟ لا شك أن هذه «الميزة الخاصة» أحد أسباب ذلك الذيوع المدهش للمنفلوطية. فقد كان الوطن العربي ـ مشرقاً ومغرباً ـ واقعاً في أكبر فاجعة شهدها في العصر الحديث، وهي الاستعمار الأوروبي. وكانت النفوس العربية حزينة ومتألمة في ذلك العصر أكثر مما هي حزينة ومتألمة في عصرنا هذا. وقد نشأ المنفلوطي وعاش ـ الى وفاته ـ تحت مظلة الاستعمار الأوروبي الذي ساهم في تشكيل حزنه وألمه.

واذا كان الاستعمار قد أنشأ في عالمنا فاجعة كبرى، ورتب حولها هالة من الحزن والألم، فذلك سبب أو عامل عام وراء نشأة المنفلوطية وذيوعها. أما الأسباب أو العوامل الخاصة التي ترجع الى المنفلوطي نفسه فهي متعددة في الحقيقة. ولا شك أن من بينها فشله في الدراسة المنظمة بالأزهر، وسجنه المبكر، ووفاة أستاذه محمد عبده، وكلها فواجع تركت في نفسه أحزاناً وآلاماً مريرة في الغالب، ورسخت ميله نحو الانطواء،

---

١٠ ـ احمد عبيد: مصدر سابق، ص ٧

واعتزال الناس، والاختفاء في بلدته كلما ألمّ به رزء أو خطب كبير [١١] .
يقول ناجي نجيب:
« نشأ الأدب المنفلوطي كاستجابة لصدمة التغيير وللمؤثرات الغربية الجديدة في المجتمع المصري. ويصور المنفلوطي كيف نبع أدبه من شعور التفاوت بين الظاهر والباطن الناتج عن التغير الحضاري وعن تغير طرق الحياة وأساليب التعامل المألوفة [١٢] » .

ويضيف الباحث أن المنفلوطي ـ كما عبّر عن ذلك في «النظرات» ـ قد استجاب لما وقع حوله واكتنف الناس من حيرة وقلق وحزن. «وكان من الطبيعي أن يكون أدبه في ظل هذه النشأة أدب توافق وتلاحم وتعويض وعزاء ونشيج ممتع. ولعل المنفلوطي قد سبق معاصريه في هذا المضمار، ولكن رومانسية الأحزان هذه لم تلبث أن أصبحت أبرز ظواهر التعبير، وأقربها الى ذوق الجمهور العام ومشاعره في تلك الحقبة، فأصبحت تشكّل التيار الأساسي في النقل عن الغرب [١٣] . وأصبح الرواج المنفلوطي تعبيراً عن «نسق نفسي قيمي اجتماعي» يغلّفه مثلما يغلّف جمهور القرّاء [١٤]

غير أن هذا كله نتيجة من نتائج تلك الفاجعة الكبرى التي يسميها الباحث «صدمة التغيير» أو «المؤثرات الغربية» ونسميها نحن ـ باختصار ـ الاستعمار. فمن المعروف أن المجتمعات العربية في أواخر القرن الماضي، وطوال الربع الأول من هذا القرن، كانت مجتمعات زراعية، بسيطة الأدوات، بطيئة الإيقاع. فلما استقرّ فيها الاستعمار ازدادت تطلّعاتها وإحباطاتها في آن واحد. ومع نمو الصحافة والتعليم والحركات الوطنية ـ في ظل الاستعمار ـ تهيأ الاستعداد للتغيير في أذهان الطبقة الوسطى. ولكن هذا التغيير كان فادح الثمن، ولا سيما في مصر. فقد كانت سلطة الاحتلال تواجه الشباب بصفة خاصة بما يغرس في نفوسهم القهر والهزيمة.

وعندما ظهر المنفلوطي بدأ في العزف على إحساس القهر والهزيمة وما يصحبه من آلام وأحزان. ولهذا كان أكثر جمهوره من الشباب الباحث عن تعويض لما يعانيه. ومع الإقبال على كتاباته ازداد المنفلوطي عزفاً.

١١ ـ ترك القاهرة لسنوات عقب سجنه ثم عقب وفاة محمد عبده عام ١٩٠٥.
١٢، ١٣ ـ مجلة الهلال: مصدر سابق، ص ١٢٦
١٤ ـ المصدر نفسه، ص ١٢٧

وراح يكتب كي يتـطهّـر من آلامـه وأحزانه وإحباطاته. ولعلّ هذا سر تشديده المتكرر ـ كما سنرى في كلماته بملاحق الكتاب ـ على أن يكون الأدب صورة للنفس وما يضطرب فيها من آمال وآلام.

وهكذا تعاونت العوامل العامة والخاصة في فاجعة العرب في العصر الحديث على دفع المنفلوطية الى الأمام، وذيوعها في الأقطار المختلفة.

ما مصيرها اذن ؟ ماذا يبقى منها ؟

يقول الزيّات، في مقاله سابق الذكر، عام ١٩٣٧:

« اذا قدّر الله لأدب المنفلوطي أن يفقـد سحـره وخـطره في أطوار المستقبـل فإن تاريـخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلا من فصوله يجعله في النثر كالبارودي في الشعر. وكفى بذلك عنوان فضل وخلود ذكر[١٥]» .

ومعنى هذا في النهاية أنه لن يبقى من المنفلوطية الا القيمة التاريخية، أي كونها مرحلة بين عهدين من الأدب.

---

١٥ ـ احمد حسن الزيات: مصدر سابق، ص ٣٩٠

٢ المنفلوطي والسياسة

نعود الى ذلك الكتاب المجهول فنقول إنه كتاب سياسي من أوله الى آخره. ولكن ما صلة المنفلوطي بالسياسة ؟ هل كان كاتباً سياسياً مثلما كان كاتباً اجتماعياً ووجدانياً ؟

وربما يكون من المستغرب أن يبدأ المنفلوطي حياته الأدبية بالسياسة. ولكن أغلب الظن أنه كان في بواكير حياته شاباً متحمساً يفيض بالغيرة على بلاده ومستقبلها. ومع أنه لم يتغيّر من هذه الناحية بعد ذلك فقد كانت حماسته الأولى متدفقة فيما يبدو. ففي نحو العشرين من عمره، أو أكثر قليلا، عام ١٨٩٧، هاجم الخديو عباس الثاني في قصيدة كانت لها ضجة وقضية مثيرة، على الرغم من أنها ظهرت بدون توقيع. وعلى الرغم أيضاً من أنه لم يكن وحده ناظمها.

وفيها يخاطب الخديو بقوله:

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
مصوب سهم بالبلاء شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا
اذا أصبح التركي وهو عميد [١٦]

وقد روى العقّاد البيتين بصورة مختلفة. وأضاف أن التغيير جاء في الرواية المسموعة للقصيدة. وهي تختلف عن نصها المنشور [١٧]. وكانت القصيدة قد خضعت لعملية تغيير كبيرة عند الناس والشعراء وقتها [١٨].

وكان من نتيجة ذلك ـ على أي حال ـ أن قبض على المنفلوطي وحقق معه.

---

١٦ ـ محمد ابو الانوار (الدكتور): مصطفى لطفي المنفلوطي. ج ٣، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٩١

١٧ ـ عباس محمود العقّاد: رجال عرفتهم، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٠٢. وقد اورد العقاد البيتين ـ من الرواية المسموعة ـ على الصورة التالية:

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
سهام بلاء وقهر شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا
اذا اصبح القَوَيُّ وهو عميد

١٨ ـ راجع: ابو الانوار، المصدر السابق، ص ٤١ ـ ٥٢

ونظراً لخطورة هذه الحادثة يحسن أن نتوقف عندها قليلا. فقد كان لها أثرها لا في حياة المنفلوطي وحسب، وانما في حياة مصر أيضا.

في يناير ١٨٩٢ توفي الخديو توفيق بعد مرض قصير مفاجىء ، ونودي بابنه عباس حلمي خديويا على مصر . وكان عباس شابا يدرس في أوروبا ، فجيء به على عجل ، وبدأ الناس يستبشرون بعهده خيرا ، ويلقون عليه آمالا كبيرة في تخليصهم من ورطة الاحتلال التي أوقع فيها أبوه البلاد . وتصادف في ذلك الوقت أن عاد الى مصر شاب آخر من الأهالي كان يدرس مع الخديو الشاب ، وهو محمد توفيق البكري الذي ينتمي الى أسرة معروفة من الأشراف المنتسبين لآل البيت النبوي . وحين تولى عباس الملك تولى البكري نقابة الاشراف ومشيخة الطرق الصوفية . وسرعان ما قرب الخديو الشاب صديقه الشاعر الأديب اليه ، وأوكل اليه بعض المهام السياسية مثل مفاوضة وزير خارجية انكلترا على جلاء القوات الانكليزية ، والإشراف على لجنة الميزانية في مجلس الشورى .

وفي صيف ذلك العام زار الشيخ البكري عاصمة الخلافة العثمانية في الآستانة ، حيث نشأت صداقة بينه وبين أبو الهدى الصيادي مستشار الخليفة وقارىء طالعه ذي النفوذ الواسع . وعلى النقيض من ذلك نشأ جفاء بين الخليفة والخديو في الوقت ذاته ـ بتحريك من الصيادي في الغالب . وكان الجفاء يرجع الى تقارير قدمت الى الخليفة ـ السلطان عبد الحميد الثاني ـ بما يفيد طمع الخديو الشاب في خلافة المسلمين . وأحس الخديو أن البكري ساهم في إشعال نار الغضب السلطاني عليه فبدأ في الحذر منه . ونما الحذر حتى أصبح كراهية عمياء حلت محل الصداقة القديمة والزمالة المتينة . وفي الوقت الذي كان الخديو فيه يركب موجة السخط على الاحتلال ومقاومته ازداد البكري قربا الى السلطان وحاشيته . وفي الوقت الذي اشتد فيه خصام السلطان للخديو أصبح البكري قريبا الى الانكليز وزعيمهم في مصر كرومر . وبدأت الدسائس والوشايات في الظهور . كما بدأ الخصام يدب بين الخديو وكرومر . وشيئا فشيئاً تحولت الحياة السياسية في القاهرة الى معسكرين متنافسين متناحرين : معسكر السلطان الذي انضم إليه البكري ومعسكر الخديو الذي انضم اليه محمد عبده وآخرون . وراح كل معسكر يكيد للآخر دون أن يحسبا حسابا للمستفيد الأول من ذلك ، وهو الانكليز .

وفي نوفمبر ١٨٩٧ ، أي بعد أكثر من خمس سنوات على صفاء الجو بين الخديو والبكري ، قام الخديو عباس بزيارة الى الوجه البحري ، في الدلتا ، عدها أنصاره دليلا على التفاف الشعب حوله . ولما عاد الخديو الى العاصمة استقبله الأنصار بالتهليل ، ولكن مفاجأة كانت في انتظاره . فقد ظهرت فجأة في شوارع القاهرة قصيدة هجاء عنيفة له مطبوعة على صفحة واحدة من الورق دون ذكر للناظم أو الناشر أو الطابع . وتحركت قوى المعسكرين على الفور ، وتحرك الانكليز للاستفادة من الموقف . ولما بلغ أمر القصيدة الخديو اتهم صديقه القديم البكري بتأليفها ، وطلب من وزير داخليته التحقيق وتقديم البكري الى المحاكمة . وتوصلت عيون الشرطة الى شخصين كان لهما ضلع في الموضوع ، أحدهما هو أحمد فؤاد صاحب جريدة « الصاعقة » ومحررها ، والآخر شاب يدرس في الأزهر هو المنفلوطي .

يقول محمد سيد كيلاني ـ الذي تقصى الموضوع ـ في مقال له :

« استدعت النيابة مصطفى لطفي المنفلوطي ، وسألته ، فاعترف بأنه هو الذي نظم القصيدة ، ولكن المحقق ضغط عليه فاضطر الى القول بأن البكري لما قرأ القصيدتين اللتين نظمهما في ذم الاحتلال وذم صحيفة « المقطم » بامضاء « عدو الاحتلال » أرسل اليه أحمد فؤاد صاحب مجلة « الصاعقة » يستدعيه اليه . وطلب منه ان ينظم قصيدة في هجاء عباس وقدم له صدر مطلعها وهو : قدوم ... ثم كلفه بأن ينظم القصيدة على هذا النسق ، وهذه القافية ، ووعده بجائزة قدرها عشرة جنيهات له ولأحمد فؤاد . ثم نقدهما أربعة جنيهات فاقتسماها . ولما فرغ من نظم القصيدة عرضها على البكري فاستحسنها وزاد عليها بيتين هما :

أعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الارض حين تسود

ثم ذهب هو وأحمد فؤاد وطبعا القصيدة في مطبعة الخيامي .

وقد استدعت النيابة أحمد فؤاد وسألته عن القصيدة . وكان قد ادعى أنه هو ناظمها . فأخبره المحقق بما اعترف به المنفلوطي عن البكري . فنظر أحمد فؤاد ، إلى المنفلوطي شزرا وقال له : « تبا لك من

خائن مارق » . فألحت عليه النيابة حتى اعترف تحت التهديد ، وذكر أن البكري هو الذي أغراه . وقال كما قال المنفلوطي . فأمرت النيابة بحبسهما احتياطيا .

وقد أراد المنفلوطي أن يثبت ما قاله عن البكري فأبرز مسودة القصيدة التي نظمها هذا الأخير مهنئا فيها السلطان عبد الحميد بانتصاره على اليونان سنة ١٨٩٧ ، مدعيا أن ذلك يؤكد وجود العلاقة بينهما .

وقد اهتم الناس بأمر قصيدة الهجاء ، واشتغل النساخ بكتابتها وبيعها . ثم دعي البكري الى النيابة وسئل عن حقيقة ما جاء في أقوال المنفلوطي وأحمد فؤاد ، فأجاب إن هذا هزؤ وسخرية بالناس ودسيسة لفقت عليّ تلفيقا سخيفا . أما أنا فلا أعرف المتهمين ، ولا رأيتهما قط ، ولا بيني وبينهما أدنى علاقة . فجيء بالمنفلوطي من السجن مقيدا بالأغلال في مواجهة البكري فأقر بأنه لم ير هذا الأخير قط ، ثم جيء بأحمد فؤاد فقال إنه رآه منذ خمسة أشهر ، ولم يره بعد تلك المرة إلا حينما كلفه بنظم القصيدة . »[١٩]

ويكمل كيلاني القصة بقوله :

« فقال البكري : إنه لا يتصور مجنون فضلا عن عاقل أن صعلوكا مثل هذا يعترف أنه لم يرني إلا مرة واحدة ، وصفته أنه يملأ الجرائد كل يوم بقوله إن الباشا فلانا أعطاني كذا لأشتم فلانا ، والآخر أغراني بكذا لأطعن على فلان ونحو ذلك ، ثم أكلفه عملا رسميا هو الجناية الكبرى على أمير البلاد ليعمله تحت اسمه ، وأشارك فيه رجلا آخر يعترف انه لم يرني ولم أره قط ، وصفته أنه عدو الاحتلال . وهذا الخطر وهذا الاقدام على ذلك الامر الفظيع هو لمجرد نَظْم قصيدة ، مع أن نظم الشعر أسهل شيء عليّ . وعندي من الاصدقاء الاخصاء أكثر من عشرين يقولونه . وما المعنى من نظمي شطرا أو بيتين من قصيدة ، ثم استعين بأجنبي لا أعرفه ولا يعرفني على اتمامها ، فهذا كلام لا يتصور في اليقظة بل في المنام .

ثم تبين كذب أحمد فؤاد في تحديده لليوم الذي قابل فيه البكري . إذ كان هذا الأخير قد أدب في ذلك اليوم مأدبة لجماعة من أصدقائه في منزله

---

(١٩) مجلة الهلال ، يوليو ١٩٨٦ ، مقال « قصر الخرنفش واحوال البلاد منذ قرن من الزمان» ص ٩٤ .

بالعباسية ، ولم يكن موجودا بالخرنفش .[٢٠] ولكن اتضح من سير التحقيق أن النيابة تريد أن تزج البكري بين المتهمين في هذه القضية . فأرغم النائب العمومي حمد الله بك أمين على تقديم استقالته ، وعين بدلاً منه المستر كوربت نظرا لمعرفته باللغة العربية . وعلى أثر ما حدث للنائب العمومي ظهرت نشرات مكتوبة بخط اليد جاء فيها :

يا أهل مصر تيقظوا من نومكم
وتفكروا يا قوم في نوم العزيز
وابكوا على مصر السعيدة واندبوا
فوزيركم قد باعها للانكليز

وعليها توقيع « جمعية انقاذ الوطن » وكانت ملصقة على الأبواب والجدران في الشوارع والأزقة والحارات .

ووجدت نشرات أخرى مكتوبة بخط اليد أيضا ومما جاء فيها : يا أهل مصر ، أين النخوة العربية ، افيقوا من النوم أيها القوم . وتلقى النظار تهديدهم بالقتل إن لم يخرجوا الانكليز من مصر خلال أربعة أشهر . »[٢١]

ومرة أخرى نترك لمحمد سيد كيلاني إكمال هذه القصة الطريفة يقول :

« وأخذت صحيفة « المؤيد »[٢٢] تبكي وتنوح على استقلال القضاء الذي اعتدى عليه الانكليز ، وتطعن على البكري طعنا قبيحا . وتناولت موضوع القضية بعض الصحف الاجنبية المعادية للانكليز وكانت المؤيد تنقل مقالات هذه الصحف وتنشرها ...

« وقد رأت النيابة ان التهمة غير متحققة بالنسبة للبكري فلم تقدمه للمحاكمة .

وقد نظرت هذه القضية أمام محكمة السيدة زينب الجزئية في (١٨٩٧/١٢/٤) ورفض المحامون الدفاع عن المتهمين مجاملة للخديو واكراما لخاطره . ولما سئل المنفلوطي أمام المحكمة قال : ان القصيدة

---

(٢٠) حي الخرنفش في القاهرة حيث كان يوجد قصر الشيخ البكري
(٢١) المصدر نفسه . ص ص ٩٥ ـ ٩٦
(٢٢) صحيفة « المؤيد » كان يصدرها ويحررها الشيخ علي يوسف صديق الشيخ محمد عبده ، ومناصر الخديو غريم البكري . وهي ذاتها التي اظهرت المنفلوطي للناس حين احتضنته عام ١٩٠٧ .

خالية من العيب ، وأنه مأجور على نظمها ، فكما برأت المحكمة الخيامي لأنه استؤجر على طبعها ، يجب أن تبرئه لأنه استؤجر على نظمها ولو لم ينظمها هو لنظمها سواه . وأنه شديد التعلق بالحضرة الخديوية ومخلص في ولائه ، والدليل على ذلك أنه نظم قصيدة يمدحها بها في يوم عيد مولدها قبل رجوعها إلى العاصمة بقليل . وأنه لولا حسن آدابه لأذاع السر الخفي الذي أوجب نظم القصيدة وطبعها .

لم تأخذ المحكمة بدفاع المنفلوطي فحكمت عليه بالحبس لمدة سنة وغرامة قدرها مائة وخمسون جنيهاً وعلى أحمد فؤاد بالحبس سنة كذلك وغرامة ثلاثة آلاف قرش . وحين عرضت القضية أمام محكمة الاستئناف خففت مدة السجن لكل منهما إلى ستة أشهر .

وقد جاء في تقرير كرومر عن سنة ١٨٩٧ ما نصه :

« توالى على منصب النائب العمومي محاميان وطنيان في الأربع سنوات الماضية ، ولكن مجرى الأعمال فيه لم يسر نظارة الحقانية ، فان النيابة العمومية التي تنوب عن الحكومة في البلاد لم تكن ادارتها كما يجب ، بل كان يرد على الحكومة من حين إلى آخر تقارير لا ترضي عن سير الأعمال في النيابة . وحدثت في الشتاء الماضي حادثة اكتفى في وصفي لها بأنها قاضية بوجود ادخال التغيير حرصا على المصلحة العامة ، فعين المستر كوربت نائبا عموميا نظرا الى خبرته في القضاء وحسن معرفته للعربية . ان ما جرى يدل على ان تقليد المصريين لهذا المنصب جاء قبل أوانه » !!!

« وكان المنفلوطي مقيما ببلده بعد أن أمضى عقوبة الجبس ، فلما اطلع على ما جاء بصحيفة المقطم من تقرير كرومر ، كتب الى الصحيفة المذكورة رسالة نصها :

« اطلعت بعدد أمس في تقرير جناب اللورد كرومر المنشور بالمقطم على نبذة تتعلق بالنائب العمومي السابق وعدم صلاحيته لتولي هذا المنصب ، وحيث إني أخبر الناس بحقيقة تلك القضية التي أحدثت ذلك التغيير فأقول :

« إن حمد الله بك النائب العمومي ومحمد بك صالح وكيل النيابة كانا في اعتقادي أعلم الناس ببراءة السيد البكري من تهمة اشتراكه بقصيدة الهجو ، كما أنهما ظهرا أحرص الناس على إلصاقها به بأية واسطة كانت

طلبا لمرضاة من لا يرضيه إلا مس شرف السيد المشار اليه . والله أعلم كيف أمكنهما حملنا على وضع امضاءاتنا على تلك الحقيقة التلفيقية ، الأمر الذي يعار على الأمة المصرية وجوده في قضاتها .

« وإني افتخر أن قضيتنا هذه كانت السبب في كشف حقيقة عظيمة ربما كانت مجهولة مدة طويلة ، فينشأ عنها من الخلل ما لا يعلمه الا الله . وأتوسل الى الباري ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتولى الأمور من يصلح لها ، وتنقشع عن جو مصر بقية تلك السحابة المظلمة فتنجلي عن شمس العدالة يشرق ضياؤها ويسطع بهاؤها »

منفلوط في ١ يونيو سنة ١٨٩٨
امضاء : مصطفى لطفي[٢٣]

لقد أطلنا الوقوف عند تفاصيل هذه الحادثة لما لها من أهمية . ومن الواضح أن المستفيد منها كان الانكليز ، الذين اتخذونها ذريعة لتثبيت رجالهم ، حتى في القضاء . ومن الواضح أيضاً أن البكري تبرأ من الموضوع كله خشية التعرض للسجن ، وأن المنفلوطي تأثر كثيراً بما حدث . فقد ترك التحقيق والسجن في نفسه أثراً مؤلماً ساهم ـ بغير شك ـ في تدعيم مزاجه الحزين ونظرته القاتمة اللذين ظهرا في نثره بعد ذلك . ويبدو أنه وقع في أزمة نفسية طاحنة . والدليل على ذلك أنه غادر القاهرة الى بلدته فور الإفراج عنه ، ولم يعد اليها إلا بعد أن تدخل محمد عبده لدى الخديو للعفو عنه . ويبدو أيضاً أن محمد عبده نصحه بأن يسترحم الخديو بقصيدة مدح في سبيل هذا العفو ، فكتبها ، ونال عفو الخديو .[٢٤] وعندما قدمه محمد عبده لصاحب « المؤيد » راح يبدي كراهيته في مقالاته الاسبوعية للسياسة والسياسيين ، وكأنما يعكس بذلك موقف أستاذه الذي كان يكره السياسة والساسة أيضا .

ومع ذلك هاجم المنفلوطي الرئيس الاميركي تيودور روزفلت عندما زار مصر سنة ١٩١٠ وأيد استعمارها على أيدي الانكليز ، كما هاجم اللورد كرومر أكثر من مرة ، وتعلق بسعد زغلول مادحا ومؤيدا حتى وفاته ،

---

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ص ٩٦ ـ ٩٧ وكان المنفلوطي يوقع باسمه هكذا دون ذكر للقب الذي اكتسبه من مسقط رأسه « منفلوط » بجوار « اسيوط » .

(٢٤) ابو الانوار ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

وتعـرض بسبب هذا التعليق الى الفصـل من وظيفتـه ومصادرة كتابه « النظرات » حين طبعه مع بعض مقالات كتابه المجهول هذا ، بل رفض أن يحـرق مقـالات هذا الكتاب حين جاءه حسن نشأت وكيل الديوان الملكي ليعرض عليه وظيفة في الديوان مقابل إحراق الكتاب ، ولما رفض المنفلوطي قام نشأت نفسه باحراقه ، ثم جاءت الشرطة للتفتيش فلم تجد شيئا ، ولكن بيته ظل محاصرا أربعة أيام .

وتدعونا صلة هذا الكتاب الممنوع بسعد زغلول الى الحديث عن صلة المنفلوطي نفسه بسعد زغلول ، وقد كانت هذه الصلة نابعة من العلاقة الشخصية بين الرجلين ، وهي كالتي تجمع بين الشيخ والمريد ، أو بين الأستاذ والتلميذ ، وقد جمعت من قبل بين محمد عبده والمنفلوطي ، فقد كان محمد عبده أستاذ المنفلوطي في الأدب والحياة ، وكان راعيه في بداية حيـاته . وأغلب الظن أنه هو الذي قدمه إلى أصدقائه ومريديه ، وعلى رأسهم إبراهيم المويلحي صاحب « مصباح الشرق » الذي نشر له بواكير كتـابـاته . وسعد زغلول المحامي الناجح والسياسي الواعد ـ في أواخر القرن الماضي ـ الذي كان له أفضال عديدة عليه بعد ذلك ، وعلي يوسف صاحب جريدة « المؤيد » الذي احتضن « أسبوعياته » .

كان محمد عبده هو الذي تشفع عند الخديو للعفو عن المنفلوطي بعد غضبته عليه ، كما أشرنا . ولما مات محمد عبده عام ١٩٠٥ حزن عليه تلميـذه المنفلوطي ، وترك القاهرة الى بلدته « منفلوط » ولم يعد إلا في أواخر عام ١٩٠٨ ، وكان سعد زغلول أشبه بولي أمره بعد ذلك . فحين عين وزيرا للمعارف في ذلك العام الذي عاد فيه المنفلوطي الى القاهرة عينه محـررا عربيـا بالوزارة ،[٢٥] وهي وظيفة مهمتها ترقية أساليب الكتابة الديـوانيـة ، ولما ترك سعد زغلول وزارة المعارف وتولى وزارة الحقانية (العدل) نقل المنفلوطي اليها ، وأسس له الوظيفة ذاتها . ولما انتخب سعـد زغلول وكيلاً للجمعية التشريعية (مجلس النواب) عام ١٩١٣ جعل المنفلوطي سكرتيرا بالجمعية ، وفي مقابل هذا حفظ المنفلوطي عهده وولاءه لأستاذه ، وكتب مقالات هذا الكتاب الممنوع على مدار السنوات ١٩٢١ ـ ١٩٢٣ دفـاعـا عن سعد زغلول وهجوما على خصومه الذين

---

(٢٥) يبدو ان هذه الوظيفة كانت نوعا من التكريم للمنفلوطي . وقد اختفت ـ على اي حال ـ من سجل وظائف الوزارة بعد تركه لها

انشقوا عليه ، بل إنه دافع عن سعد زغلول ابتداء من ثالث مقال نشره بجريدة « المؤيد » في بداية حياته ، وفي عام ١٩١٠ أصدر المنفلوطي الطبعة الأولى من « النظرات » وصدرها بعبارة وصف فيها زغلول بقوله : « ولي أمري سيدي سعد باشا زغلول » ، ويشاء القدر أن يكون يوم الاعتداء على سعد زغلول في ١٢ يوليو ١٩٢٤ هو نفسه يوم وفاة المنفلوطي ، فلما بلغ النبأ الزعيم الجريح بكى ، وصور حافظ ابراهيم الموقف في رثائه للمنفلوطي قائلا :

قد بكاك الرئيس وهو جريح
ودموع الرئيس كالرحمات[٢٦]

وقد مات المنفلوطي بعد نحو عام من ظهور كتابه الغفل من التوقيع هذا ، وقامت الحكومة في عهد عبد الخالق ثروت رئيس الوزراء بمصادرة الكتاب وقتها ، وفصل المنفلوطي من وظيفته . ومن الواضح أن الحكومة علمت بوسائلها الخاصة حقيقة صلة الكتاب بالمنفلوطي ، وقد حاول البعض أن يشير بأصابع الاتهام إلى طه حسين ، وأن ينسب اليه وشايته بالمنفلوطي ، فقد ذكر محيى الدين رضا ـ الصحفي والكاتب شقيق محمد رشيد رضا ـ أن طه حسين وشى بالمنفلوطي الى وزارة ثروت حين أصدر الطبعة الرابعة من « النظرات » مضافا إليها مقالاته في الدفاع عن سعد زغلول ، وأن الحكومة صادرت تلك الطبعة ، واحالته الى المعاش ، حتى عينه الملك في ديوانه ثم في البرلمان[٢٧] .

ومع أن صلة طه حسين بثروت كانت قوية في ذلك الوقت ، وأن كتابه الممنوع « في الشعر الجاهلي » قد صدر عام ١٩٢٦ بإهداء عاطفي الى عبد الخالق ثروت ، فليس من السهل التحقق من صحة تلك الوشاية ، ولا نعتقد أن لها قيمة في عملية مصادرة الكتاب ، وإحالة صاحبه الى المعاش ، فلا شك أن ثروت قد عرف الحقيقة من مصادر متعددة ، وأنه اتخذ قراره بناء على موقفه المضاد لسعد زغلول ، فضلا عن رغبة القصر والانكليز ـ وقتها ـ في كسر شوكة زغلول ، فالأمر كله لم يكن موجها الى المنفلوطي بمقدار ما كان موجها إلى سعد زغلول .

---

(٢٦) ابو الانوار : مصدر سابق ، ص ٨٠ . راجع نص القصيدة في ملاحق هذا الكتاب .
(٢٧) احمد عبيد : كلمات المنفلوطي ، المكتبة العربية ، دمشق ، ١٩٢٤ ، ص ١٣٨ .

٣	القضية المصرية وانشقاق الوفد

ما الذي أراد المنفلوطي أن يقوله في كتابه الممنوع « القضية المصرية » أو ما سميناه « انشقاق الوفد » ؟ ما حكاية انشقاق الوفد هذه ؟

سنكتفي هنا بمصدر واحد ، ولكنه جامع شامل لمصادر أخرى متعددة ، هو كتاب « تطور الحركة الوطنية في مصر » للدكتور عبد العظيم رمضان الذي درس في جزئه الأول تطورات الأحداث الوطنية في الفترة من ١٩١٨ الى ١٩٣٦ .

ونبدأ الحكاية من أولها :

في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ تألف « الوفد المصري » الذي سعى للتفاهم مع الانكليز حول مستقبل العلاقة بين مصر وبريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ولا يهمنا هنا أن نعرف حقيقة الخلاف التاريخي وتفاصيله حول تسلسل ظهور فكرة تأليف وفد على هذا النحو للمطالبة ببحث العلاقة بين البلدين وتحقيق الاستقلال لمصر ، وإنما يهمنا النتيجة التي وصلت إليها الفكرة ، وهذه النتيجة مؤداها أن الوفد تكون بالفعل في ذلك التاريخ من سعد زغلول رئيسا وعضوية كل من : علي شعراوي ، عبد العزيز فهمي ، محمد محمود ، أحمد لطفي السيد ، عبد اللطيف المكباتي ، محمد علي علوبة ، وتم ذلك التكوين عن طريق الوكالة الشعبية ، أي عن طريق تحرير توكيلات من مختلف طبقات الأمة ، ثم ضمَّ سعد زغلول بعد ذلك عدداً آخر من المشتغلين بالقضية المصرية ـ كما كانت تسمى ـ وهم اسماعيل صدقي ومحمود أبو النصر وعبد الخالق مدكور ومصطفى النحاس وحافظ عفيفي وسينوت حنا وجورجي خياط وواصف غالي وحمد الباسل ، وفي ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ تم التصديق على قانون الوفد ، وكانت المادة الثانية من القانون تنص على أن مهمته هي « السعي بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجد للسعي سبيلا ، في استقلال مصر استقلالا تاما »

ولكن هذا السعي من أجل الاستقلال بالطرق السلمية المشروعة ما لبث أن تفجر بعد ذلك في ثورة ١٩١٩ الشعبية العارمة ، وفيها تألق الوفد وقيادته وصارت لهما الزعامة الشعبية المنشودة ، حتى رضخ اللورد ملْنَرْ

لتطورات الأحداث وقبل التفاوض مع الوفد وحده ، بصفته الممثل الشعبي للأمة . ومع ذلك انتهت مفاوضات سعد زغلول وملنر إلى طريق مسدود بسبب مراوغة الانكليز ، بل إن هذه المفاوضات شهدت أول تصدع في الوفد المفاوض في لندن ، فقد حاول الانكليز أن يشقوا الوفد ، وأن ينفذوا من الشق الى مصالحهم ، حتى نجحوا في الحصول على موافقة عدلي يكن ـ عضو الوفد ـ على مشروع ملنر مع بعض التعديلات ، بالرغم من معارضة سعد زغلول للمشروع برمته ، ثم قرر سعد عرض المشروع على الأمة وتحكيمها في صلاحيته ، وجاءت نتيجة التحكيم في صفِّ رأي سعد ، فقد قررت الأمة ـ عن طريق مندوبيها ـ عدم صلاحية المشروع « ما لم تقبل معه التحفظات التي قيدت الأمة قبوله بها وأهمها الغاء الحماية » التي أعلنتها بريطانيا على مصر وقت الحرب الأولى .

أصبح من الواضح بعد هذه التجربة أن هناك تيارين متعارضين في الوفد: تيار المتطرفين بقيادة سعد زغلول وتيار المعتدلين بقيادة عدلي يكن، وكان التيار الأول يعتد بالشعب ويرفض التفريط في حقوقه في الحرية والاستقلال، في حين كان التيار الآخر يأخذ بالحلول الوسط ولا يريد التورط في إغضاب الانجليز أو القصر.

وقد عاد سعد من تجربة المفاوضات غير الناجحة مع ملنر أكثر اعتداداً وتمسكاً بالقوة الشعبية التي التفّت حوله وزودته بالمزيد من الثقة بالنفس، وعند وصوله الى القاهرة في ٥ ابريل ١٩٢١ استقبله الشعب بحفاوة بالغة.

لم يغلق تيار الاعتدال في الوفد باب التفاوض مع الانجليز على أي حال، فقد شرع عدلي يكن رئيس الوزراء وقتها في جولة أخرى من المفاوضات، ويقول الدكتور رمضان في ذلك إن المعتدلين «غرّتهم كثرتهم في الوفد فآثروا الصدام مع سعد زغلول في قمة شعبيته وتأييد الأمة له، فكان هذا الصدام بداية مرحلة صاخبة في حياة مصر الداخلية، أرسيت فيها كل تقاليد الصراع الحزبي العنيف والخصومة الحادة التي طبعت حياة مصر حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو» [٢٨] .

---

٢٨ ـ عبد العظيم رمضان (الدكتور): تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨ ص ٣٢٠

وقد وقع الصدام بين عدلي وسعد بسبب الخلاف حول شروط الأخير للاشتراك مع وزارة الأول في المفاوضات. وكانت الشروط هي إلغاء الحماية والأحكام العرفية والرقابة على الصحف، والحصول على اعتراف بالاستقلال التام، مع الاحتفاظ للوفد بأغلبية المفاوضين ورئاسة الوفد المفاوض واستصدار مرسوم سلطاني بتحديد مأمورية المفاوضين، وكان شرط رئاسة الوفد وتحكمه في الأغلبية هو السبب في الصدام، فقد رفض عدلي وتياره المعتدل هذا الشرط بحجة أنه رئيس الوزارة وأن الأمر لا يستحق التحزّب، وقرّر الاستمرار في المفاوضات.

يقول الدكتور رمضان مرة أخرى إن عدلي كان يدرك الخلاف في صفوف الوفد، وان سعد لو أصر على موقفه من طلب عدم الثقة بالوزارة، فإن النتيجة سوف تكون انشقاق الوفد وتفتيته. كما كان يدرك أن في انشقاق الوفد ضعفاً لسعد وقوة له هو شخصياً، وهذا ما حدث، ولكن النتيجة كانت ضعفاً لعدلي والمنشقين، وقوة لسعد وأصحابه، وهكذا تفاوض جورج الخامس مع جورج الخامس كما قال سعد زغلول، فقام عدلي رئيس الوزارة وأحد موظفي الحكومة الانجليزية كما سماه سعد بالتفاوض مع الحكومة الانجليزية التي ترعاه وتحفظ له وظيفته، ومع ذلك لم يصل الى شيء أكثر مما وصل إليه سعد من قبل، ولكن أخطر شيء كان الانشقاق وانسحاب عدد كبير من الوفديين الأوائل عن زعيمهم، ولم يبق مع سعد سوى نفر قليل مثل النحّاس وغالي وحنا وواصف، وتفرّع المنشقون الى مجموعتين: مجموعة أعضاء حزب الأمة القديم وأنصارهم، وقد كوّنوا حزب الأحرار الدستوريين فيما بعد، ومجموعة أخرى من أعضاء الحزب الوطني الذي أصبح يمثّل السلبية في السياسة على حد قول الدكتور رمضان، وفوق هذه وتلك علا نجم الملك فؤاد كقوة تهدد سلطة الشعب وحقوقه. ومضى عدلي يكن في تحدّيه لمشاعر الأمة وسلطتها، غير آبه بالمظاهرات التي اجتاحت البلاد ضده وفشل في مفاوضاته مع الانجليز، وكانت النتيجة النهائية هي نفي سعد زغلول وصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢. ولكن روح ثورة ١٩١٩ لم تخمد [٢٩] .

هذا هو مجمل الأحداث التي استفزت مشاعر المنفلوطي، وأخرجته ـ مرة أخرى ـ عن سياق كتاباته الوجدانية والاجتماعية التي عرف بها.

٢٩ ـ المصدر نفسه، ص ٣١٦ وما بعدها.

ولم يكن السر وراء استفـزاز مشاعر المنفلوطي سوى فزعه من الخطر الذي هدّد الوحدة الوطنية للأمة وزعمائها في وقت واحد، وتمثلت آثار هذا الاستفزاز في ١٣ مقالا شكلت كتابه الصغير الممنوع.

والآن: ماذا يقول المنفلوطي في كتابه هذا أو في مقالاته هذه ؟

لقد استهل المقالة الأولى بعنوان « العاصفة » برشاش من الصور البيانية التي عهدناها في مقالاته غير السياسية. يقول:

« إن قلبي يرتعد خوفاً وفرقاً، أسمع قعقعة في جوف السماء فهل هي نذير العاصفة التي يريد الله أن يرسلها علينا ؟ أرى الوجوه شاحبة، والعيون حائرة، والجباه عابسة، فهل شعر الناس بويل مقبل انقبضت له صدورهم، واقشعرت له جلودهم ؟ ما هذا المنظر المرعب المخيف ؟ ما هذه الضوضاء المرتفعة بالمجادلات والمناقشات في المجتمعات العامة والخاصة ؟ من هم هؤلاء الذين يتصارعون ويتجاذبون، ويبغى بعضهم على بعض ؟ إن كانوا مصريين فويل لمصر وأهلها ومستقبل الحياة بعد اليوم، هذا هو شأن الأمم البائدة في أدوار سقوطها واضمحلالها، وفي ساعة وقوفها على حافة الهوة العميقة».

بهذه المقدمة المنفلوطية المعهودة يمضي الرجل الذي كان يُبكي الناس باللغة والبيان، ويستطرد، ثم يستطرد كعادته، حتى يبلغ الحديث عن سعد زغلول في صراعه مع خصومه المعتزين بالقوة الأجنبية على حد تعبيره، ويجد أن البلاد قد تقاسمتها قوتان هائلتان: قوة العدو الخارجي المستترة. وقوة العدو الداخلي الظاهرة، وكلاهما تسلم للأخرى، وهما معاً يدعواننا إلى قوة أعظم تخلصنا منهما، فلا الإنجليز ولا خصوم سعد أفضل لمصر. وليس لهما دواء سوى «قوة العقيدة الراسخة، والإيمان الثابت، والثقة بالنفس، والأمل الواسع، والثبات على المبدأ».

وهو يتهم الانجليز بأنهم سبب تفريق الوحدة الوطنية «الشريفة» التي هي الحياة والروح وخير ما استفدنا من جهادنا، لأن النهضة التي نهضتها مصر لم تكن رواية تمثيلية، «والشرق لم يثق بالجهل ولا بالضعف كما يقولون... بل لأنه يوجد في كل شعب من شعوبه أمثال هؤلاء الأقوام (يقصد خصوم سعد) الذين ابتلينا بهم في مصر، خبثاء الأغراض والمقاصد، موتى العواطف والمشاعر».

ولكن المنفلوطي لا ينهي المقال بالدعوة الى محاربة هؤلاء المنشقين

الخارجين كما قد يتوقع قارىء المقال، فهو يرى أن الانجليز قوة لا قِبل لنـا بهـا، وأن هذه القوة تحميهم. بل لا يرى أن يجادلهم الناس فيما اعتنقوه لأنهم من السماجة والصفاقة بحيث يستطيعون إنكار أن الأرض أرض والسمـاء سمـاء، وليس عنده من دواء إزاءهم سوى الإعراض عنهم، وهذه رؤية الأديب صاحب الخيال لا السياسي صاحب المواقف.

في المقـالات الثـلاثة التالية بعنوان «إلى خصوم سعد باشا» يحمل المنفلوطي هراوة ضخمة، وينزل بها على رؤوس المنشقين. فهو يعد سعد زغلول «خصم السيـاسـة الانجليزية في مصر» وخصومه أصدقاء تلك السياسة، ويفضح تشدّق هؤلاء بالوطنية، لأن دعوى الوطنية عنده قد أصبحت كلمة بسيطة نطق بها جميع الناس في مصر بما في ذلك «سكينة» مجرمة الاسكندرية التي زعمت أنها «كانت تخدم الوطن بقتل النساء العـاهرات ليعتبر بمصرعهن الحرائر الشريفات»، فهي دعوى محتاجة دائمـا الى برهـان على حد قوله، وبـرهـانها الوحيد عنده هو «مجافاة السياسة الانجليزية»، أي مناصرة سعد زغلول.

ولذلك يطالب المنشقـين ببـرهان واحد على وطنيتهم، هو أن يعقدوا اجتماعاً عاماً يعلنون فيه الاحتجاج الشديد اللهجة على بقاء الأحكام العرفية في مصر والقوانين الاستثنائية، وقانون المطبوعات. وتقييد حرية الخـطابـة والكتابة، ومنع المظاهرات السلمية والاجتماعات السياسية، واعتبـار الوطنية جريمة تعاقب عليها المحاكم العسكرية والنظامية. ثم يطالبهم بعد إعلان هذا الاحتجاج بأن يختتموه بهذه الكلمة:

«إنـا لا نقبل مفاوضة سياسية تجرى بين فريقين. أحدهما سجين في سجن مظلم ضيق، لا يستطيع التنفس فيه ولا الحركة، والآخر سجّان قاس مستبد يجرد على رأسه سيف القوة والقهر، ويملي عليه ما يريد ويشتهي».

وفي المقابل، إذا لم يفعل المنشقون هذا، فهو يستأذنهم في أن يعدهم الشعب أعداءه، وأن يلوذ بالإخلاص للرجل الذي يجاهد في سبيل شعبه وأمته، وهذا الرجل نفسه ـ سعد زغلول ـ لن تتخلى عنه الأمة ما دام واقعاً تحت سخط السياسة الانجليزية وما دام باقياً في صفوف الأمة، وهنا يعلن المنفلوطي أن سعـداً ليس خصم المنشقـين، وإنما خصومهم هم اولئك الذين يغرونهم به ويسلطونهم عليه، لأنهم ـ الانجليز ـ يعلمون

أن «الأمة لا تفلح بغير زعيم».

ويحلل المنفلوطي بعد ذلك الأيادي الثلاث التي لسعد زغلول على الأمة:

١ ـ تأسيس الوحدة المصرية التي عجزت عنها القرون الثلاثة عشر الماضية.

٢ ـ نقل الفكرة الوطنية من دور الأماني والأحلام الى دور الجد والعمل.

٣ ـ نشر الدعوة الوطنية في أنحاء العالم كله حتى وجدت فيه مسألة تسمى «المسألة المصرية».

في المقابل أيضاً لا يجد المنفلوطي لخصوم سعد شيئاً من المنن، بل يجد كل ما يسيء اليهم وما يسيء منهم الى وطنهم، ويشرع في مقارنة طويلة بينهم وبين الزعيم، ومن المقارنة قوله بطريقته المعهودة التي ازدادت هنا حماسة وخطابية:

« سعد باشا يصيح في جميع مواقفه ومشاهده قائلا: يجب أن يكون الشعب حراً مطلقاً، يختار لنفسه السياسة التي يريدها، وأنتم تصيحون قائلين: يجب أن يساق الشعب الى السياسة التي تراد منه، لأنه شعب جاهل منحط لا يفهم مصلحته، ولا يستطيع تقديرها، سعد باشا يربي الأمة على الفضيلة وشرف الخلق، ويبث فيها روح الهمة والعزيمة والأنفة والصدق والصراحة والشرف والإباء وأنتم تفسدون أخلاقها وتمزقون أديم آدابها، وتطلبون من القاضي أن يحكم بغير ما يعتقد، ومن الشاهد أن يشهد بغير ما يعلم، ومن الفقيه أن يفتي بما يخالف أحكام دينه وقواعده... سعد باشا يقول فيصدق، وما عرفنا له أكذوبة قط مذ عرفناه، واتصلنا به حتى اليوم، وأنتم تطلعون علينا كل يوم بأكذوبة جديدة لا ينتهي العجب منها حتى تتبعها أختها، حتى سقطتم من أعيننا سقطة لم تسقطها طائفة من قبلكم، وحتى قال عنكم أصحاب الرأي من الشيوخ المحنكين إنكم قد أفسدتم من أخلاق الأمة في بضعة شهور فوق ما أفسده الاحتلال الانجليزي منها في أربعين عاماً».

وعلى هذا النحو يمضي فيقارن عمل المنشقين بعمل محاكم التفتيش في اسبانيا، وتشتد لهجته عنفاً فيصف عدلي يكن بأنه «طريد الأمة وشريدها» ويتهم أنصاره بالطمع والشره والأنانية والعمالة للاستعمار.

وفي المقال التالي ـ الخامس ـ بعنوان «اليوم الأسود» يذكر المنشقين

بجرمهم الذي ارتكبوه في مدينة أسيوط حين سلّطوا زبانيتهم على سعد ورجاله يريدون إغراقهم في النيل، ويعد ذلك يوماً أسود، ويعدهم «رؤساء عصابات». ويعد حزبهم الذي حاولوا تكوينه «فئة من اللصوص والمجرمين حملة الهراوات والنبابيت»، بل يعدهم «بلهاء» ثم يضيف:

«لم يتكون حزب سياسي في مصر تحت زعامة عدلي باشا، والناس لا يعرفون من أمر الرجل شيئاً سوى أن السياسة الانجليزية اختارته لرئاسة الوزارة، والمفاوضة في المسألة المصرية، فإن ذكر ذاكر منهم شيئاً من ماضيه لا يذكر له سوى أنه كان عضواً مهماً في وزارة الحماية التي ضربت على مصر في سنة ١٩١٤، وأنه أول من ثغر في جنح الظلام ذلك السد المتين الذي أقامته الأمة المصرية في وجه لجنة ملْنر وأنه أول رئيس وزارة اجترأت على مفاوضة الانجليز في المسألة المصرية رغم إرادة الامة وإرادة وكلائها».

ويصل في مقاله التالي بعنوان «جريمة الانشقاق» إلى التعليق على فشل عدلي يكن في مفاوضاته الرسمية وما عرضه عليه الإنجليز بصورة أقل من الصورة التي رفضها سعد زغلول من قبل، ويطلب من عدلي وشيعته الذين فرّقوا وحدة الأمة ألا يلوموا سوى أنفسهم، لأن سعداً حذّرهم فلم يسمعوا، ونوّرهم بالحق فلم يذعنوا، في حين «أن لا قوة في مصر غير قوة الشعب، ولا حكم فيها إلا حكمه».

في المقال التالي ـ السابع ـ بعنوان «عبرة الدهر» يستخلص المنفلوطي من فشل عدلي وأصحابه في المفاوضات مع اللورد ملْنَر ثم مع اللورد كيرزن عبرة تتلخص في «أن رجلا واحداً من أبناء أمتكم ـ يقصد سعداً ـ تمسك بالحق فاستطاع أن يثبت أمام أقوى قوة في العالم. وأن ثباته قد أنقذ مصر من أعظم نكبة»، وفي المقالين التاليين بعنوان «إلى أعدائنا» يوجه الخطاب الى الإنجليز، ويصفهم بأنهم قوة لا توجد في العالم قوة أخرى توازيها، ولكن مصر على ضعفها وخلو يدها من السلاح أقوى منهم، والسبب هو أن الإنجليز حاربوا مصر بسلاح الخديعة والمكر الذي انتصروا به من قبل على شعوب الشرق، ومع ذلك استطاع هذا الشعب الشرقي الصغير أن يدرك خبايا مقاصدهم.

ثم يناديهم: « اقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا، ألِّفوا الوزارة ولكن من رجالكم لا من رجالنا، املكوا علينا كل شيء إلا قلوبنا وأفئدتنا، احكمونا

باسم الأحكام العرفية والأساليب العسكرية، لا باسم القوانين الشرعية والأحكام السماوية والأرضية، افتخروا بأنكم قمعتم الحركة المصرية، وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم، ولكن لا تفخروا بأنكم حللتم مشكلة مصر، وفرغتم من قضيتها».

ويسأل المنفلوطي الإنجليز عن جريرة الرجل الذي حكموا عليه بالمنفى ـ سعد زغلول ـ مع أنه من فريق الدعاة لا من فريق الثوار على حد قوله، كل ذنبه أنه طالب بحق بلاده بالحجة والبرهان ومع ذلك لم يرحموا شيخوخته ومرضه، ثم يذكرهم بأنهم كانوا يفاوضون بالأمس، وصاروا يشردون الزعماء اليوم. وينهي مقاله الأخير بنداء:

« سنأكل الشيح والقيصوم إن عزَّ الطعام إلا من أيديكم، ونلبس الجلود والفراء إن أقفرت الأرض إلا من مصانعكم، ونشرب الملح الأجاج إن أبى العذب الزلال أن ينبع إلا في أفقكم، ونعيش في الظلمة الداجية إن أبت الشمس أن تشرق إلا من آفاقكم، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال، ونلبسها ثوب القحط والجدب، لنقطع السبيل على مطامعكم، ونكدّر عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأمواهها، غير شاكين ولا متبرمين، فلا خير في نعمة يكدّرها الذل، وبُعْداً لماء لا يشربه شاربه إلا ممزوجاً بدم.

في المقال التالي ـ العاشر ـ بعنوان «إلى سعد باشا في منفاه» يقدم المنفلوطي بطريقته المعهودة ترنيمة حب وعزاء للزعيم المنفي، ويضفي عليه كل ما أمكنه من صفات وخِلال، ويخاطبه بكلمة «مولاي»، والمقال كله قطعة إنشائية منفلوطية نموذجية، ثم يمضي في المقال التالي بعنوان «في أي سبيل هذا ؟» فيذكر الزعيم المنفي بما جناه «المعتدلون». ثم يذكر بما جنت أيديهم في حق البلاد وحق زعيمها.

وفي المقال التالي أيضا بعنوان « ثم ماذا ؟ » يمضي مرة أخرى في نكيره على المنشقين بعد أن بلغت الشدة منتهاها في أواخر عهد الوزارة الثروتية ، على حد تعبيره ، نسبة لعبد الخالق ثروت ، ويذكرهم بما تحتاج إليه الأمة من توحيد الكلمة والدستور والبرلمان ، وإصلاح المال والإدارة والعلم ، ورعاية العدل والحرية ، ولكن هذا كله لا يأتي إلا من حكومة تحبها الأمة ، ومع ذلك فهو لا يطالب المنشقين بالانسحاب من الحكم ، وإنما يطالبهم بألا يتعرضوا لقضية مصر السياسية بوجه من

الوجوه ، وإلا فليعلنوا أن المسألة المصرية حكومية محضة لا دخل للأمة فيها .

وفي المقال الأخير ـ الثالث عشر ـ يخص سعد زغلول بالتحية والتهنئة بسلامة العودة من المنفى ، ويخاطبه على نحو يذكرنا بما فعله توفيق الحكيم في « عودة الروح » قائلا : « مرحبا بالأمة في رجل ، والعالم في واحد ، والبطل الذي تمر به الحوادث الجسام التي تطير بألباب الرجال فيثبت ثبات الصخرة الصماء في وجه الرياح الهوجاء .. إننا نحييك يا مولاي فنحيي فيك الشرف والنبل ، والهمة والشجاعة ، والصبر والجلد ، والإخلاص والوفاء ، والتضحية الشريفة ، والألم الصامت ، ونحيي فيك مصر القديمة لأنك ولدها النجيب ، وارث صفاتها ومزاياها ، ومصر الحديثة لأنك واضع أساسها ، وغارس غرسها ، ونحيِّي معك تلك السيدة العظيمة المجاهدة الصابرة شريكتك في نعمائك وبأسائك ومعينتك على همومك وآلامك .. »

بهذه العبارة الأخيرة وما تلاها من ترادف الحب والتحية ينتهي كتاب المنفلوطي المجهول ، والكتاب كله ، بمقالاته الثلاثة عشر ، يمثل المنفلوطي نفسه خير تمثيل في رؤيته وتناوله ولغته ، أما مادته فهي هنا مادة سياسية في الأساس ، ولكنها تطوف بالتاريخ والاجتماع ، وإذا عدنا إلى رؤيته الحزينة القاتمة التي نعهدها في كتاباته الأخرى فالرؤية هنا حزينة وقاتمة أيضا ، فهو قلق وحزين على مستقبل البلاد في ايدي المنشقين ، وهو أيضاً متشائم يرى المستقبل كئيباً بدون سعد زغلول ، بل إن تناوله لموضوع ذلك الانشقاق الخطير في صفوف الوفد لم يخل من العاطفية المسرفة والمبالغة والاستطراد .

وكعادته ، في كتبه الأخرى ، حشد المنفلوطي كتابه بالحِكَم والعبارات التي تشبه المأثورات مثل : الأمة التي لا سلاح لها لا ثورة فيها ، لا سجن في الدنيا غير سجن النفس ، الحب لا يشترى بالأسماء والألقاب ، القلم لا يجد لذة المراح والجولان إلا في ميدان الصدق والاعتقاد ، الخ . وكعادته أيضاً ملأ الكتاب بعباراته الإنشائية مثل : قبل أن تنبعث الطير في وكناتها ، يفرون بين يديه فرار الجؤذر بين يدي الأسد الرئبال ، نبذكم نبذ النواة ، الخ . بل إنه لم يدقق في تعبيره مثل تدقيقه في إدهاش قارئه بأسلوبه ، وترك قلمه على سجيته غير مبال بما يخرج منه من مبالغات

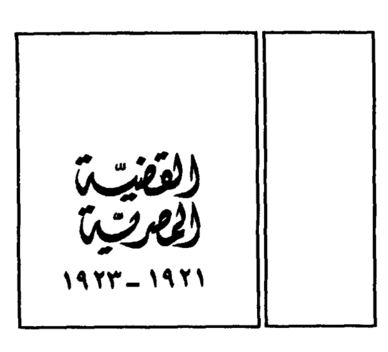
مثل : ماذا جنى الرجل عليكم فتنفوه إلى أقصى بقعة من بقاع الأرض ؟ ولو أننا قرأنا هذه العبارة التي وجهها إلى الانكليز بمعزل عن السياق العاطفي الذي جاءت فيه لقلنا على الفور أن صاحبها مبالغ أو جاهل بالجغرافيا . فليست جزيرة سيشيل التي نفى الإنجليز سعد زغلول إليها أقصى بقعة من بقاع الأرض ، ولكنها السيولة التي تأخذ القلم إلى أقصى درجات المبالغة دون تدقيق . ومع ذلك فهذه المبالغة في هذا الكتاب بالذات أدنى في الكمّ من مبالغات المنفلوطي في كتبه الأخرى . ومع ذلك أيضاً فخطرها يكمن في تدفقها ، وهي قد تدفقت هنا إلى درجة إحداث أثر عكسي ، لا في إيحائها بالتسيب في التعبير أو الجهل بالجغرافيا وغيرها وحسب ، وإنما في احتمال عكسها للمعنى المراد أو الإساءة دون قصد . فهو يتساءل في حديثه إلى الإنجليز ، فيقول عن سعد زغلول : أين هي الثورة التي أشعل نارها ؟ ويحاول التخفيف عن زغلول فيقول : كان سعد من فريق الدعاة لا من فريق الثوار . وفي كلتا الحالتين أساء الى زغلول من حيث أراد الإحسان إليه ، وإلا فما حكمه على ثورة ١٩١٩ التي ظهر فيها سعد زغلول مشعل نار وثائرا ؟ ولكنها ـ مرة أخرى ـ السيولة التي تأخذ القلم إلى أقصى درجات المبالغة دون تدقيق .

غير أن المنفلوطي هنا ـ والحق يقال ـ يستخدم جميع أسلحته الثقافية والأدبية بكفاءة أكبر مما عهدناه في كتبه السابقة . فهو كثير الرجوع إلى ثقافته التاريخية والعصرية في توضيح مراده ، مثل ضربه المثل على لجاج أعداء سعد وجدلهم بما حدث في بيزنطة حين أخذوا يتجادلون وتركوا العدو يدخل ساحتهم ، وإشارته الى سفاحتى الاسكندرية اللتين كانتا تتذرعان في القتل بالوطنية ، وحديثه عن جرائم محاكم التفتيش في أسبانيا والصراع بين البروتستنت والكاثوليك في أيرلندا ، وذكره لبعض القصص التي طالعها ، ومحافظته على خصائص أسلوبه في التكرار والترادف والتضمين والتقسيم والخطابية .

لقد شحذ المنفلوطي ثقافته وأسلوبه في هذا الكتاب الصغير . وبدا ناضجاً ـ إلى حد كبير ـ في فكره وأسلوبه على السواء . ولو امتد به العمر قليلا لأصبح من غلاة الوفديين السعديين ، أنصار سعد لا أنصار الحزب الذي نسب نفسه إليه .

وبهذه الخصائص كلها يصبح الكتاب وثيقة أدبية مثلما هو وثيقة

سياسية ، وهو وثيقة أدبية تتعلق بانتاج المنفلوطي من ناحية ، وهو أيضا وثيقة سياسية تتعلق بوطنية المنفلوطي وعصره من ناحية أخرى ، وهو أخيرا درس من دروس الوطنية .


القضية المصرية
١٩٢١ ـ ١٩٢٣

١ | العاصفة *

إن قلبي يرتعد خوفاً وفرقاً ،أسمع قعقعةً في جوف السماء ، فهل هي نذير العاصفة التي يريد الله أن يرسلها علينا ، أرى الوجوه شاحبة ، والعيون حائرة ، والجباه عابسة ، فهل شعر الناس بويل مقبل انقبضت له صدورهم ، واقشعرت له جلودهم ؟

ما هذا المنظر المرعب المخيف ؟ ما هذه الضوضاء المرتفعة بالمجادلات والمناقشات في المجتمعات العامة والخاصة ؟ ومن هم هؤلاء الذين يتصارعون ، ويتجاذبون ، ويبغى بعضهم على بعض ؟ إن كانوا مصريين فويل لمصر وأهلها ومستقبل الحياة فيها بعد اليوم ، هذا هو شأن الأمم البائدة في أدوار سقوطها واضمحلالها ، وفي ساعة وقوفها على حافة الهوة العميقة .

لقد ظننت في ساعة من ساعات حياتي أنني قد أمنت على مصر أبد الدهر ، وكان قلبي يستطير فرحاً وسروراً كلما سمعت تلك (الجوقة) الموسيقية الجميلة تتغنى في أرجائها بنغمة واحدة وتوقيع واحد ، وكنت أصغي إليها بسرور واغتباط إصغاء العاشق المفارق إلى تغريد الحمائم المترنمة فوق أفنانها ، ثم ما لبثت أن شعرت أن النغمة قد اختلفت ، والتوقيع قد اضطرب ، فذُعرت وارتعت ، ورفعتُ رأسي فإذا أنا في « بيزنطية » وإذا الناس جميعاً في كنيسة « أياصوفيا » يتناقشون ويتجادلون جدالاً شديداً في مسألة الطبيعة والطبيعتين ، وأبواب المدينة

---

* كتبت على اثر انشقاق المنشقين عن الوفد المصري وإرغامهم محاربة سعد باشا رئيس الوفد ، تنفيذاً للإرادة الانجليزية التي كانت متالمة اشد الألم من صلابة الزعيم وعناده في التمسك بحقوق الوطن .
(هامش الطبعة المجهولة)

تقعقع تحت ضربات معاول العدو فلا يسمعون لها صوتاً !

كنـا جميعاً ، وكان الشمل منتظماً ، وكان كل ما يعزينا عن بؤسنا وشقائنا منظر تلك الوحدة الجميلة التي كنا نُشرف على روضتها الزاهرة الغناء من نوافد سجننا فتَهون علينا همومنا وآلامنا ، ولم يكن منظرٌ في العالم أجمل ولا أبدع من منظر تلك الدموع الرقراقة التي كانت تتلألأ في عيوننا جميعاً ، لأنها كانت في الحقيقة دموع السرور والاغتباط باتحادنا واتفاقنا ، ووحدة كلمتنا ، وقوة جامعتنا .

لا تزال العاصفة تدوي وتعصف ، ولا يزال البناء يضطرب ويهتز ، فليت شعـري هل يتمـاسك ويعود إلى سكونه واستقراره ؟ أم قدر له السقوط كما قدر لأمثاله من الأبنية في عهود التاريخ الغابرة ؟

ها هو سعد باشا يمسك البناء بيده أن يتداعى ويتهدم ، ولكنه قد تعب جداً ، ونال منه الجهد والنَصَب ، لأن الحمل ثقيل ولأن الهادمين من خصـومـه المصريـين معتـزون بالقـوة الأجنبيـة وهي فوق طاقته واحتماله ، فهل تستطيع الأمة أن تمد يدها إليه وتعينه على عمله الشاق ؟

هنالك قوتان هائلتان جداً ، قوة العدو الخارج مستترة ، وقوة العدو الداخـل ظاهرة ، وهما تعملان معاً بنظام واحد ، وفكر واحد ، هو أن تُسلمنا أُخْراهما لأولاهما ، فلنزحف إليهما بقوة أعظم من قوتهما شأناً ، وأجـل خطراً ، وهي قوة العقيـدة الراسخة ، والايمان الثابت ، والثقة بالنفس ، والأمل الواسـع ، والثبات على المبدأ ، نظفرْ بهما معاً ، ونقض عليهما جميعا ، فلا يبقى لهما عين ولا أثر .

إن الساسة الإنجليز يريدون أن يمزقوا شمل وحدتنا الوطنية التي بذلنا في سبيلها الشيء الكثير من ذات أنفسنا وذات أيدينا ليستثمروا شقاءنا وآلامنا فهل نسمح لهم بذلك ؟

لا ، فقد أصبحت الأمة غير الأمة ، والعقول غير العقول ، والأفهام غير الأفهام ، وليست هذه النهضة التي نهضناها اليوم ترديداً لأصوات القـائلين ، أو تقليـداً لحركات الناهضين ، أو فصلاً تمثيلياً ، أو لعبة بهلوانية ، وإنما هي عقيدة راسخة في النفس رسوخ الإيمان في نفوس المـؤمنـين ، فليطلبوا لهم صفقة غير هذه الصفقة ، في سوق غير هذه السوق ، فما نحن بسلع تباع وتُشترى ، ولا بمأدبة عامة يهوى إليها

الغادون والرائحون .

إننا لم نجاهد يوم جاهدنا من أجلهم ، بل من أجل وطننا ، ولم نغنم في معاركنا التي أدرْناها هذه الوحدة الشريفة لنضعها يوم نظفر بها في أيديهم ، يمزقون شملها ، ويشوهون صورتها ، ويلعبون بها لعب الصوالج[٢٩] بالأُكَر[٣٠] .

محال أن نسمح لهم بها طائعين مختارين ، فهي حياتنا وروحنا ، وأثمن ما تملك أيدينا ، وخير ما استفدنا من جهادنا ، بل كل ما استفدناه منه ، وسنذود عنها ذود الأم الرؤوم عن واحدها ، والعذراء العفيفة عن عرضها ، وسنبذل في سبيل استبقائها في أيدينا فوق ما بذلنا في سبيل الحصول عليها .

ليس من السهل علينا ولا مما تحتمله أطواقنا أن يتحدث الناس عنا ـ وقد بدأوا يتحدثون ـ أن تلك النهضة التي نهضناها إنما كانت رواية تمثيلية خلبنا بها عقول المتفرجين ساعة من الزمان ، حتى إذا نزل الستار عليها إذا الوجوه الوجوه ، والصور الصور ، وإذا الداء القديم ، والمرض العضال .

إن الشرق لم يشق بالجهل ولا بالضعف كما يقولون ، فقديما عاش الضعفاء والجهلاء أحراراً مستقلين بفضل اتحادهم وقوة جامعتهم ، بل لأنه يوجد في كل شعب من شعوبه أمثال هؤلاء الأقوام الذين ابتلينا بهم في مصر خبثاء الأغراض والمقاصد ، موتى العواصف والمشاعر ، لا يتألمون إلا لأنفسهم ، ولا يبكون إلا على نقص في أموالهم وثمراتهم .

والشعب المصري أول شعب شرقي نهض نهضة سياسية في هذا العصر ، ثم مشت الشعوب الشرقية بعد ذلك على أثره ، فيجب أن يكون أول شعب يعرف كيف يمحق الدسيسة الكامنة بين أحشائه ، لتتعلم منه الشعوب الأخرى كيف تمحق الدسائس الكامنة بين أحشائها فيعود بالفخرين ، ويلبس التاجين .

إنا لا نريد أن نحارب المنشقين والخارجين ، فالقوة التي لا قِبَل لنا بها من ورائهم تحميهم ، ولا أن نجادلهم ، فإن لهم تحت جلدة وجوههم ذخيرة من السماجة والصفاقة كافية لإنكار أن الأرض أرض ، والسماء

---

(٢٩) الصوالج : جمع صولجان ، وهو العصا المعقوفة الطرف يضرب بها الفارس الكرة .

(٣٠) الأكر : جمع كرة .

سمـاء ، وأن هناك فرقاً بين لون الليل ولون النهار ، بل نريد أن نقي أنفسنا شر دسائسهم ومكائدهم ، ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا إذا أعرضنا عنهم ، وصُنَّـا أنـظارنـا عن رؤيـة وجـوههم ، وأسمـاعنا عن سماع أصواتهم ، كما يتعوذ المتعوِّذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن فعلنا فقد انتصرنا انتصاراً عظيماً لم نوفق إلى مثله في جميع أدوار تاريخنا من عهد « سيزستريس » حتى اليوم ، وإلا فما خلق الله في العالم خَلقا أهون على الله وعلى الناس منا .

٢. إلى خصوم سعد باشا*

١

سعد باشا خصم السياسة الانجليزية في مصر ، وعدوها الألد ، ما في ذلك شك ولا ريب ، فجميع خصومه السياسيين من المصريين أصدقاء لتلك السياسة ، وأعوان لها على أمتهم .

هذا هو الذي أستطيع أن أفهمه ويفهمه الناس جميعاً ، ولا فرق عندي بين أن توضع في عنقي جامعة أُقاد بها إلى دار المارستان لأقضي فيها بقية أيام حياتي ، وبين أن أفهم غير ذلك .

فاشتموا يا خصوم سعد سعداً ما شئتم ، وافتنُّوا في النيل من كرامته ما أردتم ، فلا معنى لذلك عندنا إلا أنكم آلة صماء في يد السياسة الانجليزية ، تتولون بالنيابة عنها زحزحة العقبة الكبرى التي تعترض طريقها ، وتعرقل مساعيها ، وتقف سداً حائلاً دون تنفيذ تلك الفكرة الجهنمية الهائلة ، فكرة تسجيل الحماية الانجليزية على مصر ، واحلفوا بالله جهد أيمانكم أنكم وطنيون مخلصون ، ما خلق الله بين أرضه وسمائه خلقاً أطهر قلباً ، ولا أنقى سريرة ، ولا أنبل مقصداً منكم ، وأنكم لا تريدون بما تفعلون إلا خير الوطن وأهله ، وهناء الأمة وسعادتها ، فليس بمُغْنٍ ذلك عنكم عندنا شيئاً ، لأن الوطني لا يحارب الوطني ، ولا يبتغي لَه الغوائل ، ولا ينصب الحبائل لهدمه ونسفه .

دعوى الوطنية كلمة بسيطة تصدر من الفهم بسهولة ، كما يتنفس المتنفس ، ويتنهد المتنهد ، وقد نطق بها جميع الناس في مصر حتى « سكينة »[٣١] مجرمة الاسكندرية ، فقد زعمت أنها إنما تخدم الوطن بقتل النساء العاهرات ليعتبر بمصرعهن الحرائرُ الشريفات فلا يسقطن في مثل ما سقطن فيه ، فهي دعوى محتاجة دائماً إلى برهان ، وبرهانها

---

* كتبت هذه السلسة في غضون المعركة الهائلة التي دارت بين الزعيم سعد باشا تعضده الأمة المصرية وبين عدلي باشا رئيس الحكومة ورئيس المنشقين تعضده القوة الانجليزية . وقد ذاق فيها الشعب اشد انواع العذاب وافظع صنوف الاستبداد والاضطهاد (هامش الطبعة المجهولة)

(٣١) الاشارة هنا إلى سكينة وزميلتها ريًا السفاحتين اللتين ظهرتا في الاسكندرية في اوائل العشرينات . وقد سجلت قصتهما في فيلم سينمائي معروف من إخراج صلاح ابو سيف . وكانتا تقتلان العاهرات بعد ان تسرقا ما يحملن او يرتدين من حلي ذهبية .

الوحيد الذي نستطيع أن نتعقله بلا تكليف ولا تَعمُّل ، ولا فلسفة ولا حذلقة ، هو مجافاة السياسة الانجليزية ، والانحراف عنها ، والتهجُّم لها ، وسلوك كل طريق غير طريقها ، وما دمتم متفقين معها في اعتبار سعد باشا خصما سياسيا خطرا يجب هدمه وإسقاطه ، فأنتم أعوانها وأنصارها ، ومحال أن تكونوا أعواننا وأنصارنا .

السياسة الانجليزية تخنق الحرية السياسية في مصر ، وتضرب على أيدي الكاتبين ، وألسنة الناطقين ، وعقول المفكرين ، وتأبى إلا أن تسوق الناس جميعا في طريق السياسة التي ترضاها لنفسها ، وسعد باشا يحتج كل يوم على ذلك ، ويصرخ الصرخات الهائلات التي ترتجف لها جوانب الأرض ، وتهتز لها أركان السماء ، وأنتم سكوت صامتون ، لا تحتجون ولا تغضبون ، فهو الوطني المخلص من دونكم .

بيننا وبينكم أمر واحد ، إن أنتم فعلتموه نلتم ما شئتم من حبنا ورضانا ، وإكرامنا وإجلالنا ، ونزلتم من نفوسنا المنزلة التي ينزلها الوطنيون المخلصون ، وهو أن تعقدوا اجتماعاً عاماً تكتبون فيه احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة الإنجليزية على بقاء الأحكام العرفية في مصر حتى اليوم ، وعلى القوانين الاستثنائية ، وقانون المطبوعات ، وتقييد حرية الخطابة والكتابة ، ومنع المظاهرات السلمية ، والاجتماعات السياسية ، واعتبار الوطنية جريمة تعاقب عليها المحاكم العسكرية والنظامية ، ثم تختمون احتجاجكم بهذه الكلمة « إنا لا نقبل مفاوضة سياسية تجرى بين فريقين ، أحدهما سجين في سجن مظلم ضيق ، لا يستطيع التنفس فيه ولا الحركة ، والآخر سجان قاس مستبد يجرد على رأسه سيف القوة والقهر ويملي عليه ما يريد ويشتهي »

هذا هو البرهان الوحيد الذي تستطيعون أن تقنعونا من طريقه بوطنيتكم وإخلاصكم لأمتكم ووطنكم ، وأنكم قوم أحرار أباة متشبعون بروح العدل والشرف .

فإن لم تفعلوا فائذنوا لنا ـ ولنا العذر الواسع في ذلك ـ أن نعتبركم أعداءنا وأعداء حريتنا واستقلالنا ، وأن نتمسك بالإخلاص للرجل الذي يذود عنا ، ويجاهد في سبيلنا ، ويحارب ظالمينا .

أتدرون متى نتخلى عن سعد باشا ونخذله ونرتاب في صدقه وإخلاصه ؟ يوم ترضى عنه السياسة الإنجليزية ، وتذود عنه الصحف

الإنجليـزيـة ، وتثنى عليـه الدوائـر الانجليـزيـة . وتدافع عنه القوة الانجليـزيـة ، وتستحيـل نفسه إلى نفس انجليزية يحس بإحساسها ويشعر بشعورها ، ويتحرك بحركتها ، ويسكن بسكونها ، ويوم تضمه الحكومة الانجليزية إلى صدرها ، وتحنو عليه حنو الوالدة المشفقة على طفلها الصغير ، معتقدة أن حياتها في حياته ، وموتها في موته ، وما دام سعـد باشـا باقيـا في صفوفنا لم يفارقنا ولم يتخل عنا ، فمن الخبَل والسفاهة وسقوط النفس أن نفارقه ونتخلى عنه ، فإن عجز عن أن ينفعنا بشيء في قضيتنا فلا أقل من أن يشفى غليلنا بتنغيص ظالمينا ، ولا شيء ألذ للنفوس ولا أشهى إليها من تنغيص الظالمين .

ماذا تنقمون من سعد باشا أيها القوم ، وأي جناية جناها عليكم في أنفسكم أو في أمتكم فتحملوا له بين جوانحكم هذه المَوْجِدَةَ وهذه البغضاء ؟

ليس سعد باشا هو الذي اغتصب بلادكم ، واستأسر أوطانكم ، وأذل أعناقكم ، وأرغم أنوفكم ، وخنق الحرية السياسية في مجامعكم العامة ، ومجالسكم الخاصة ، فما يستطيع أن ينطق ناطق ، ولا أن يكتب كاتب ، إلا إيماء وتعريضاً .

ليس سعد باشا هو الذي لعب بعقول فريق من أعضاء الوفد وأغراهم بالانفصال عن الجامعة الوطنية والخروج عليها ليتوصل بذلك إلى تمزيق شمل الأمة وتفريق وحدتها ، وليس هو الذي استثمر بدسائسه ومكائده طمـع الطامعين ، وجبن الجبناء ، وغباوة الأغبياء ، ليستعين بهم على خراب الوطن ودماره .

ليس سعد باشا خصمكم ، بل خصومكم أولئك الذين يغرونكم به ، ويسلطونكم عليه ، لأنهم يعلمون أن الأمة لا تفلح بغير زعيم ، وأن لا زعيم فيها يغني غنَاءه ، ويسد مكانه ، فإن ظفروا به فقد ظفروا بالأمة جميعـا ، وحلوا العقـدة التي عجـزوا عن حلها أربعين عاماً ، فحولوا سهامكم إلى خصومكم ، ووجهوا ضرباتكم إلى المرقب الذي تتساقط منه السهام عليكم .

ارحموا أمتكم ولا تثيروا حفيظتها بإهانة زعيمها ونصيرها الباقي لها بعـد تخلي جميع أنصارها وأعوانها عنها ، ولا تنتهزوا فرصة ضعفها وعجـزهـا فتدفعوها إلى إحدى السوءتين ، إما الغضب الذي ليس من

مصلحتها ، وإما الذل الذي هو فوق طاقتها ، واذكروا كيف يكون شأنكم غداً أمام أنفسكم وأمام ضمائركم إن تمت لأعدائكم الغاية التي يرومونها من مصر على يدكم ، لا قدر الله ولا سمح ، بل كيف يكون بكاؤكم وعويلكم على وطنكم وبلادكم ، حينما تستيقظون من رقدتكم ، وتستفيقون من سكرتكم ، فتعلمون أن العدو قد اقتحم البلد ، وأنكم أنتم الذين فتحتم له أبوابه بأيديكم .

٢

والله ما ندري ما هي دالَّتكم علينا ، وصنيعتكم عندنا ، ونعمتكم التي قلدتم بها أعناقنا ، فتطلبوا إلينا كل يومٍ في خطبكم وبياناتكم ورسائلكم وكل ما تهتف به ألسنتكم وأقلامكم أن نَنْفَضَّ من حول سعد باشا ونلتف من حولكم ، ونخذله وننصركم ، ونفارق طاعتهِ الى طاعتكم .

لسعد باشا على الأمة ثلاث أيادٍ لا تستطيع أن تنساها مدى الدهر ، أنه أسس الوحدة المصرية التي عجزت عنها القرون الثلاثة عشر الماضية ، وأنه نقل الفكرة الوطنية من دور الأماني والأحلام الى دور الجد والعمل ، وأنه نشر الدعوة الوطنية في أنحاء العالم كله حتى وجدت فيه مسألة تسمى « المسألة المصرية » إن لم تتحقق فيها الآمال اليوم فغداً ، فماذا قدمتم أنتم إلينا من الخِدم[٣٣] ، وقلدتم به أعناقنا من المنن ؟

هبونا كما تزعموننا قوماً سذّجاً بسطاء ، طائشي العقول والأحلام ، لا نستطيع أن نعيش بغير معبود نعبده ، ونخنع له ، أليس من الطبيعيِّ والمعقول أن نفضل عبادة الشمس التي نرى نورها ، ونشعر بحرارتها ، ونتمتع بضيائها على عبادة الحشرات التي لا نكاد نشعر بوجودها ، ولا نرى لها فائدة في شئون حياتنا ؟

من أنتم أيها القوم ؟ وأي شأن لكم عندنا ؟ وما هي الصلة النفسية التي تجمع بيننا وبينكم ؟ وأين مواقفكم التي وقفتموها في خدمة قضيتنا ؟ وصحائفكم التي شغلتموها من تاريخ حياتنا ؟ وما الذي يَغُرُّنا منكم ، ويبهرنا من شؤونكم ، لنعبدكم ونستسلم إليكم ، ونضع في

(٣٣) الخِدَم : جمع خدمة

أيديكم قيادنا ، وقياد حاضرنا ومستقبلنا ؟

إننا نعرفكم جميعاً بأشخاصكم وأعيانكم ، ونعرف جميع ميولكم وأهوائكم ، والجهة التي تتجهون إليها دائما في شؤون حياتكم ، والسياسة التي تظاهرونها وتمالئونها مذ برزتم إلى الوجود حتى اليوم ، ونعرف أنكم ذلك الفريق الذي يعثر به المستعمر دائماً في كل أمة يريد القضاء عليها فيستعين به على أغراضه ومآربه لا أكثر من ذلك ولا أقل ، فكيف تطمعون في أن نتخذكم زعماء لنا في سياستنا ، بل كيف تطمعون في أن نعدكم مصريين تشتركون معنا في شعورنا وإحساسنا ؟

سعد باشا يبني الوحدة الوطنية ، وأنتم تهدمونها ، سعد باشا يحارب خصومنا ويناوئهم ، وأنتم توالونهم وتظاهرونهم ، سعد باشا يبكي دماً يوم يستشهد شهيد منا في سبيل وطنه ، وأنتم تشمتون به وتفرحون ، وتقولون هذا جزاء المخاطرة والمجازفة ، سعد باشا يثير الثائرة كل يوم على الأحكام العرفية ، والقوانين الاستثنائية ، وأنتم ترضون عنها ، بل تؤيدونها ، بل تشتركون في وضع موادها ، سعد باشا يريد أن تتطهر الإرادة المصرية من رذائل الكذب والنفاق ، والظلم والإرهاق ، وأنتم تغرونها بارتكاب هذه الرذائل جميعها ، وتمالئونها عليها ، وتغضبون وتصخبون كلما شعرتم أن يداً من الأيدي تحاول زحزحة الستار عنها ، سعد باشا يصيح في جميع مواقفه ومشاهده قائلاً : يجب أن يكون الشعب حراً مطلقاً يختار لنفسه السياسة التي يريدها ، وأنتم تصيحون قائلين يجب أن يساق الشعب إلى السياسة التي تراد منه ، لأنه شعب جاهل منحط لا يفهم مصلحته ، ولا يستطيع تقديرها ، سعد باشا يربي الأمة على الفضيلة وشرف الخلق ويبث فيها روح الهمة والعزيمة والأنفة والصدق والصراحة والشرف والإباء ، وأنتم تفسدون أخلاقها وتمزقون أديم آدابها ، وتطلبون من القاضي أن يحكم بغير ما يعتقد ، ومن الشاهد أن يشهد بغير ما يعلم ، ومن الفقيه أن يفتي بما يخالف أحكام دينه وقواعده ، ومن الموظف أن يعتمد في رقيه وتقدمه على المداهنة والمداجاة ، لا على الكفاية والعمل ، ومن التلميذ أن يطرق إلى نجاحه في الامتحان باب التأييد والتوقيع ، لا باب الجد والاجتهاد ، ومن الفلاح أن يبيع ذمته وضميره برتبة أو لقب أو قضاء مصلحة مالية ، ومن الكاتب أن يحول قلمه الذي وضعته الأمة في يده ليدافع به عنها ،

ويذود عن مصلحتها [illegible] يصيب به صميم قلبها ، وتطلبون من الأمة كلها أن تتجرد من شخصيتها وهُويّتها ، وتتحول إلى قطيع من الأغنام يسير به كل راع في الطريق التي يريدها .

سعد باشا يقول فيصدق ، وما عرفنا له أكذوبة قط مذ عرفناه واتصلنا به حتى اليوم ، وأنتم تطلعون علينا كل يوم بأكذوبة جديدة لا ينتهي العجب منها حتى تتبعها أختها ، حتى سقطتم من أعيننا سقْطة لم تسقطها طائفة من قبلكم ، وحتى قال عنكم بعض أصحاب الرأي من الشيوخ المحنكين إنكم قد أفسدتم من أخلاق الأمة بضعة شهور فوق ما أفسد الاحتلال الانجليزي منها في أربعين عاماً .

فهل من أجل هذا ننفض من حول سعد باشا ونلتف من حولكم ، ونخذله وننصركم ، وننزع عن رأسه تاج الزعامة لنضعه فوق رؤوسكم ؟

إنكم إذن تريدون أن تقرروا أن أرض مصر قد استحالت إلى دار مارستان كبرى يعيش فيها أربعة عشر مليونا من المخبولين ، وأن تُشهدوا العالم كله على أننا أمة بلهاء ممرورة لا تستحق استقلالا كاملا ولا ناقصاً ، بل لا تستحق البقاء في هذا الوجود .

ليس لنا أيها القوم زعيم نعبده ونخنع له غير المبدأ ، وما ولينا سعد باشا زعامتنا إلّا لأنه ينزل على إرادتنا ، وإرادتُنا القاطعةُ ألا ينزل على إرادتكم ، ولا يأخذ برأيكم ، ولا يسير في طريق يعلم أنكم تسيرون فيها ، وما دام هذا شأنه فمحال أن نغدر به ، ونخفر ذمته ، ومحال أن نخلي بينكم وبينه ، ونسمح لكم بشفاء غليلكم منه ، ونحن شهود نسمع ونرى .

عجباً لكم ، فيكم العالم والمستنير والفيلسوف والكهل المجرب والشيخ المحنك ، فكيف فاتكم جميعاً أن للطبيعة سُنّة لا يمكن تحويلها ولا تبديلها ، وأن تحويل أمة مستنيرة ذكية عددها أربعة عشر مليونا من الحياة إلى الموت في بضعة شهور ليس بالأمر السهل الهين ، وأن نقل الزعامة من يد إلى يد ليس من الأشياء الخاضعة لقانون الحول والقوة ، بل لقانون الانتخاب الطبيعي الذي تخضع له الجمعية البشرية مذ أشرقت عليها شمس الحياة حتى اليوم ، وأن توجيه النفس الانسانية من شعور إلى ضده لا يأتي من طريق القوة والقهر ، بل من طريق الحجة والاقناع ، أو من طريق الاستدراج والاستهواء على الأقل .

ما أشد غروركم بأنفسكم أيها القوم! وما أشد احتقاركم لأمتكم! أمّا غروركم بأنفسكم فلأنكم ظننتم أنكم بالقاء بعض الخطب، وكتابة بعض الرسائل، وتدبير بعض المكائد، وإنفاق بعض الأموال، تستطيعون تحويل الأمة المصرية بأجمعها من حب سعد الى بغضه، ومن الثقة به الى الثقة بغيره، ومن التمسك والتشدد في المطالب الوطنية، الى القناعة والتهاون فيها، ومن سوء الظن بالسياسة الانكليزية، الى حسن الظن بها، ومن السخط على مشروع مِلْنَر[٣٣]، الى الرضا عنه والاغتباط به، بدون استناد الى حجة ولا برهان، كأن ما تُفضون به الى الناس آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وما طمع يوما صاحب الآيات المنزلة نفسُـه جل جلاله ان يؤمن الناس بآياته ويذعنوا لها دون ان يدعمها بالحجة والبرهان، وأما احتقاركم لأمتكم فهو اعتقادكم انها امة بسيطة ساذجـة تأتي بهـا كلمة، وتذهب بها كلمة، وتطير بها فكرة، وتهبط بها أخرى، وكأنما انتم تقولون في أنفسكم ان الروح الوطنية التي تختلج في صدرها إنما هي روح صناعية غرستها الحوادث والظروف فلم لا تنتزعها الحوادث والظروف كذلك، وان الوحدة الوطنية التي تربط بين أجزائها إنمـا هي وحـدة كاذبة موهومة فلم لا نبدِّدها ونمزق شملها بوهم من الأوهـام الكـاذبـة، وان المنـزلة التي نالها سعد باشا فيها انما نالها بالسفسطة والثرثرة فلم لا نسلط عليها السفسطة والثرثرة فتذهبا بها، وما دام هذا مقدار عقلها وتصورها فمن السهل علينا ان نَعدها بأننا نحن الذين سننيلها جميع آمالها ومطالبها لتطمئن إلينا، حتىَ إذا حان وقت الوفـاء بوعـدنا قدمنا لها القيد الحديدي الذي أعددناه لها، وسميناه خلخالا ذهبيا، فتصدق وتغتبط وتستطير فرحا وسرورا.

ان كان هذا هو ما تضمرون في أنفسكم، وما أحسبكم تضمرون غيره، فوالله ما احتقر أحدٌ في العالم هذه الامة احتقاركم، ولا رأى شعب من الشعوب فيها حتى الشعب الذي يستعبدها ويستذلها هذا الرأي الذي ترونه، وائذنوا لي ان أقول لكم بعد ذلك انه ما دامت أفكاركم وآراؤكم في

---

(٣٣)ـ اللورد الفرد ملنر (١٨٥٤ـ١٩٢٥) سياسي بريطاني جاء الى مصر في ديسمبر ١٩١٩، على رأس لجنة، للتحقيق في احداث الثورة التي اشتعلت في مارس من ذلك العام، ونفي سعد زغلول بسببها. وكان من توصياته اطلاق سراح زغلول. فلما اطلق سراحه انتقل الى فرنسا ورفض الادلاء بشهادته امام اللجنة. وقد استمر ملنر في مصر اشهراً خرج منها بمشروعه المعروف. وله كتاب بعنوان «انجلترا في مصر»

المجتمـع وشؤونه، والأمم وطبائعها، والنفوس ومشاعرها، لا يمكن ان تتجاوز هذا القدر الذي وصلت اليه، فليس بينكم رجل واحد يستطيع ان يكون زعيما لأمة، او زعيما لقرية، أو زعيما لنفسه.

٣

إن كنتم تريدون أن تجردوا سيف القوة والقهر على رؤوسنا لتستلوا من بين أشـداقنـا كلمات الحمد لكم، والثناء عليكم، والاعتراف بأنكم أصدق الناس وطنية، وأشدهم إخلاصا، وأعدلهم حكما، وأسدّهم رأيا، وأبعدهم نظرا، وأنكم خير من يتولى قيادة القضية المصرية حتى يبلغ بها الغاية المرجوة لها، فلكم ما شئتم وفوق ما شئتم، ولا عار علينا في ذلك، ففينا الضعيف والعاجز والمضطر وصاحب الحاجة، ومن قبلكم عالجت محكمة التفتيش في إسبانيا من أهليها مثل ما تعالجون منا اليوم، فنطق المـوحـد بكلمة التثليث، ولبس صاحب العمامة القلنسوة، وعلق حامل المصحف الصليب، ومِنْ قبل ذلك أرغم كثير من الملوك الظلمة العلماء والفقهاء على إتباع المذاهب والنحل التي ينتحلونها، فلم يجدوا بدا من الاذعـان لهم، والنزول على حكمهم، غير أن لنا عندكم رجاء واحدا لا نضرع اليكم في شيء سواه، وهو أن تعترفوا بالطريقة التي حملتمونا بها على الاذعـان والتسليم، وألا تكـذبـوا علينـا فتنشروا في النـاس أنكم أقنعتمـونا فاقتنعنا، وأقمتم لنا الحجة فسلمنا، وأننا آمنا بكم طائعين مختـارين، فتلك النكبـة العـظمى، والرزيئـة الكبرى، التي لا قبل لنا باحتمالها، وخير لنا أن يتحدث الناس عنا أننا ضعفنا وجبنا بين أيديكم، فلم نستطع إلاّ النزول على حكمكم، والتسليم لكم بما تريدون، من أن يقولوا عنا إننا انخدعنا بكم، وصدقنا أكاذيبكم.

لا نطيق أن يتحـدث النـاس عنا أننا صدقنا أن أصدقاء الحماية بالأمس أعـداؤهـا اليوم، وأن الذين أغمدوا في صدورنا تلك الخناجر المسمومة قد تحولوا اليوم الى أطباء راحمين يحاولون انتزاعها منا، وأن الفارين من صفوف الجيش الوطني الى صفوف جيش العدو ليحاربونا معه، ويعينوه علينا، وطنيون مخلصون، وان الذين يرمون الأمة بالجهل والغباوة والانقياد الى زعمائها انقياد القطيع لراعيه بلا تصور ولا إدراك

أصدقاء لها، يعطفون عليها، ويتمنون لها الخير والسعادة، وأن اتفاق السياستين، سياسة الحكومة المصرية وسياسة الحكومة الانكليزية في الأقـوال والأفعال، والشعور والاحساس، والميول والرغبات، والأساليب والتصـورات، من باب توارد الخواطر، ووقوع الحافر على الحافر، كما يقـول البلاغيون، وأن الديموقراطية الصحيحة هي أن تخضع أكثرية الأمة العظمى لأقليتها الضئيلة المتهالكة، فان لم تفعل فهي المنقسمة والمنشقة والمنحرفة عن سواء السبيل، وأن الزعيم الوطني يجب أن يكون رجـلا بسيطاً مجردا من صفات البطولة والنبوغ والشخصية القوية، والذكاء الخارق، ليصلح لزعامة الأمة وقيادتها، وأنه كان من الواجب على سعد باشا كلما برز إليه رجل من الرجال وقال له تنح لي عن زعامة الأمة وقيـادتهـا لأتـولاها بدلا منك، وأمدَّني فوق ذلك بقوتك ونفوذك وثقتك لأستـطيع أن أنزل من نفوس الأمة المنزلة التي تنزلها، وأتمتع بحبها واحتـرامها، وجب عليه أن يفعل ذلك، فإن أبى فهو مستبد جبار لا تقع تبعة انقسام الأمة وتفرقها إلّا على رأسه، ولا يؤخذ بها أحد سواه، وأن المفـاوض الذي لا يمثل إلّا فئة قليلة من الشعب لا تجرؤ ان ترفع صوتها إلّا بين جدران الحصـون وتحت ظلال السيوف أعظم قوة وأكبر نفوذا وأثبت قدما وأقدر على استنزال مفاوضه على حكمه من الزعيم الذي يمثل أربعة عشر مليونا يغضبون لغضبه، ويرضون لرضاه، وأن الواجب علينا أن نصبر ونتريث وأن لا نسيء الظن بأعدائنا قبل أن نرى منهم عين الغدر، ولا بأس أن نسمح لهم بالزحف علينا، بل باجتياز العقبات التي تعترض طريقهم إلينا، بل باحتلال القلاع والحصون المشرفة علينا، بل بتوجيه فوهات مدافعهم الى منازلنا وبيوتنا، فإذا شرعوا في إلقاء القنابل وقذفدها علمنا أنهم يريدون السوء بنا فحاربناهم وقاومناهم، وأن سعد باشا زعيم الأمة ورئيسها المفدى وموضوع حبها واحترامها وإجلالها وإعظامها ظمآن الى الرآسة يتلهف شوقا إليها، ويتهالك وجدا عليها، أما عدلي باشا طريد الأمة وشريدها فهو رجل زاهد فيها، قالٍ لها، ما يحتمل أن يشاك شوكة في سبيلها.

لا نطيق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقناكم في شيء من هذا كله، ولو أننا فعلنا لوضعنا في أيديكم مستندا قويا هو أقوى في دلالته على غباوتنا وجهلنـا من جميع المستندات التي جمعتموها حتى اليوم لتكون في يد

السيـاسة الانكليزية أسلحة تحتج بها علينا وتُلقى بها في وجوه الذين يزعمون أننا أمة عاقلة رشيدة نستطيع أن نحكم أنفسنا بأنفسنا.

إصنعوا بنا ما شئتم، وافتنّوا في ظلمنا وإرهاقنا ما أردتم، وخذوا من عرائض الثقة والتأييد ما تملأون به غرف وزارة الخارجية الانكليزية من أرضها الى سمائها، فتلك إرادة الله التي لا محيص عنها، ولكن إياكم أن تزعموا أننا أعطيناكم من قلوبنا وأفئدتنا ما أعطيناكم من ألسنتنا، فذلك ما نغضب له كل الغضب، وما يملأ صدورنا غيظا وحنقا.

نقسم لكم بالله أننا ما رأينا في حياتنا ولا في تاريخنا الحاضر أن الغابر أطمع ولا أشره منكم! ألم يكفكم مساعدة الدهر لكم، ونزوله على حكمكم، وأن القوة الانجليزية من ورائكم تمدكم بكل ما تقترحون من سلاح وعدة، وأن في استطاعتكم متى شئتم أن تُقهرونا على كل ما تريدون دون أن يحاسبكم عليه محاسبة، أو يراقبكم مراقب، حتى أردتم أن تجمعوا إلى متعة الظلم الوحشي الذي تنعمون به متعة السمعة الحسنة، والذكرى الطيبة!

تريـدون أن تظلموا فيسمى الناس ظلمكم عدلا، وأن تقتلوا فيقبل المقتول أيديكم اعترافا بفضلكم، وأن تختلسوا الثقة من الناس اختلاسا فيشكر لكم هؤلاء الناس تفضلكم بقبول الهدية التي قدموها إليكم، وأن تضعـوا الأغـلال الثقيلة في عنق الأمـة فترقص فرحا وسرورا بالعقود اللؤلؤيـة الجميلة التي قلدتم بها جيدها، وأن تملأوا الجو هواء ثقيلا خانقا فيستنشقه الناس هواء طلقا عليلا، وأن تضعوا على قرص الشمس حجابا كثيفا حتى ما ينبعث منها شعاع واحد فيبتهج الناظرون بمنظر نورها المتلألىء الساطع.

لقد رمتم مراما لم يرمه أحد قبلكم، وبلغتم في الأنانية والذاتية الغاية التي لا غاية وراءها، فآه لو استطعتم أن تفهموا، وتيسر لكم أن تعلموا، أن المستحيـل لا يمكن أن يكـون ممكنـا، والممكن لا يمكن أن يكـون مستحيلا، وألا وجود لشيء في العالم غير الحقيقة المجردة!

آه لو فهمتم أن هذه الأمـة التي تحتقرونها وتزدرونها، وتصفونها بالجهل والغباوة، والغرارة[٣٤] والبساطة، أمة عظيمة جدا لا مثيل لها بين الأمم في سلامة فطرتها، وذكاء قلبها، ودقة شعورها واحساسها، وسمو

---

(٣٤)ـ الغرارة: السذاجة.

خصائصها ومزاياها، وأنكم العقبة الكؤود التي لا تزال تعثر بها كلما حاولت المضي في طريقها، والسعي إلى الغاية التي هيأتها الأقدار لها، ولولا أنكم اليد التي يضربها العدو بها، والقنطرة التي يجتازها اليها، لما استطاع أن يلمس شعرة من رأسها، ولا أن يخطو خطوة في أرضها، فمتى نفرغ منكم، ومتى يحكم الله بيننا وبينكم.

لا عذر لكم بعد اليوم، فقد قلتم كل شيء، وفعلتم كل شيء، واستنفدتم جميع ما وهبكم الله من القوى العقلية والمادية ستة شهور كاملة في سبيل إسقاط سعد باشا فلم تسقطوه، وفي حمل الأمة على التهاون في حقها فلم تستطيعوا، فماذا تنتظرون؟

أمصممون أنتم على الاستمرار في خطتكم هذه الى النهاية؟ أعازمون على أن تعتبروا الأمة كمية مهملة لا حساب لها، وأن تؤلفوا من أنفسكم جمعية صغيرة تزعمون أنها الأمة بأجمعها لتصدق على المشروع الانجليزي المنتظر!

إن كان هذا هو ما تريدون، وما أحسبكم تريدون غيره، فاعلموا أن للأمة شأنها المستقل عن شأنكم وشأن مشروعكم وجمعيتكم، وأن ما تعملونه لا ينفعكم، ولا ينفع أصدقاءكم، ولا يغنى عنكم ولا عنهم شيئا.

٣ | اليوم الأسود*

أتدرون ماذا فعلتم بالأمس في أسيوط وماذا كنتم تريدون أن تفعلوا في كل بلد ينزله سعد باشا في رحلته لو وجدتم إلى ذلك سبيلا؟

إنكم قد وقعتم بأنفسكم على صك اعترافكم بعجزكم وقصوركم، وفراغ أيديكم من كل حول وقوة، وإن هذا منتهى ما في وسعكم، وكل ما تملك أيمانكم.

أبعد ستة شهور كاملة تكتبون وتخطبون، وتدسون وتكيدون، وتلفقون وتكذبون، وتصادرون حرية الألسنة والأقلام، والنظر والتفكير، وتنثرون ذهب المعز وتجردون سيفه في كل بقعة وأرض، لتكوين حزب سياسي عظيم، يعضد الانجليز في سياستهم، ويعين الوزارة على البقاء في مركزها، ويقارع حزب سعد باشا مقارعة البطل للبطل، ينكشف الستار عنكم فاذا أنتم رؤساء عصابات، وإذا الحزب الذي كونتموه فئة من اللصوص المجرمين حملة الهراوات والنبابيت، وسكان الأحراش والغابات، يستطيع كل انسان يأمن جانب الحكومة ويملأ يده منها وإن كان أجبن الجبناء، وأضعف الضعفاء، أن يستعين بمثلهم على مثل ما استعنتم بهم عليه؟

أهذا هو الحزب السياسي العظيم الذي هيأتموه للفصل في القضية المصرية، والبت في حاضر مصر ومستقبلها؟

أهذا هو الحزب المفكر العامل الذي يمشي إلى أغراضه السياسية بخطوات هادئة رزينة يعجز عن مثلها الجمهور الأهوج المستطار الذي تنعوْن عليه كل يوم طيشه وخفته، وجهله ورعونته؟

أمَّا إني لو كنت مكان رئيس الوزارة الذي تزعمون أنكم حماته ودعاته، وأنصار سياسته، وعماد وزارته، لأحسنت تأديبكم على غشكم إياي، وخديعتكم لي، حينما زعمتم أنكم رؤساء مطاعون في عشائركم وقبائلكم، وأن في استطاعتكم تكوين حزب سياسي قوي يغمر بقوته

---

* كتبت على اثر تلك المؤامرة الفظيعة التي تمت بالاتفاق بين القوة الانكليزية والحكومة المصرية وافراد من مجرمي المنشقين في اسيوط وكان يراد منها هلاك سعد باشا ومن معه عند وصوله في رحلته الى هذه المدينة فسلمه الله الا ان كثيرا من رجاله وانصاره قتلوا واغرقوا في النهر فتم بذلك العار على هؤلاء المجرمين ابد الدهر (هامش الطبعة المجهولة)

وعظمته ونبله وشرفه حزبَ «الرعاع» الذي كونتموه وسميتموه باسمي، ونسبتموه لي، جماعة من قطاع الطرق يترفع عن الاتصال بهم عمدة قرية صغيرة، فضلا عن رئيس حكومة عظيمة، ولكن ما أدرانا ألا يكون زعيمكم مثلكم سخافة وجهلا.

ما هكذا تساق الأمم أيها البلهاء. ولا هكذا تقاد الشعوب، ولا بمثل هذه الأساليب توجه الأفكار الى الخطط السياسية، وما سمعنا قط إلا في عرفكم واصطلاحكم أن النبابيت والعصي والخناجر والبنادق وسيلة من وسائل التأثير والاقناع!

حاربوا الرجل بالألسنة والأقلام كما يحاربكم، وقارعوه بالحجة والبرهان كما يقارعكم، وحاجّوه بالصراحة والصدق والنبل والشرف كما يحاجّكم، فإن أمكنكم ذلك فذاك، وإلّا فلا تلجأوا إلى الربة الخائنة بالغادرة التي يلجأ إليها المبارز الجبان حينما يعجز عن الثبات أمام خصمه، ويشعر بتفوقه عليه.

ما أقساكم! وما أغلظ أكبادكم! أمن أجل تقديم مستند بسيط للسياسة الانجليزية تعتمد عليه في إثبات أن الرجل الذي يفاوضونه اليوم يمثّل الأمة المصرية أو أكثريتها، وأن الاتفاق الذي يعقدونه معه كيفما كان شأنه اتفاق سائغ مشروع، ومن أجل أن يتيسر لوكيل وزارة الخارجية الانجليزية أن يصرح في مجلس النواب بوجود فتنة في مصر بين حزب زغلول باشا وحزب الحكومة، تسفكون دماء أبناء وطنكم، وتقترفون أكبر جريمة تعاقب عليها الشرائع السموية والأرضية، وتلبسون أنفسكم وأبناءكم وذراريكم العار الذي لا يبلى أبد الدهر!

أليس لكم أولاد تخافون أن ينتقم الله منكم فيهم، ونساء تخشون أن يذرفن الدموع غدا على فلذات اكبادهن بما أذرفتم من دموع أولئك الأمهات المساكين اللواتي فجعتموهن في اولادهن، وفلذات أكبادهن؟

أين هم العدليون[٣٦] الذين تتحدثون عنهم، وتحاولون إقناع السياسة الانجليزية بوجودهم، وفي أيِّ أرض يقطنون، وتحت أي سماء يعيشون!

أمن أجل بضع شراذم من الضعفاء المخدوعين، وآخرين من المتملقين

(٣٦)ـ العدليون: انصار عدلي يكن المناوئون لسعد زغلول.

المداهنين، الذين يوجد مثلهم في كل أمة وشعب، والذين يطيرون مع القوة حيث طارت، ويقعـون معهـا حيث وقعت، ويعضدون كل حكومة حتى حكـومة ثيرون، تزعمون أن الأمة منقسمة على نفسها، وأنها فريقان: سعديون وعدليون؟

لِمَ يتكـون حزب سياسي في مصر تحت زعامة عدلي باشا والناس لا يعـرفـون من أمر الرجل شيئا سوى أن السياسة الانجليزية اختارته لرآسة الوزارة والمفاوضة في المسئلة المصرية، فإن ذَكرَ ذاكرٌ منهم شيئا من ماضيه لا يذكر له سوى أنه كان عضوا مهما في وزارة الحماية التي ضربت على مصر في سنة ١٩١٤، وأنه أول من ثغر[٣٧] في جنح الظلام ذلك السد المتين الذي أقامته الأمة المصرية في وجه لجنة ملنر، وأنه أول رئيس وزارة اجترأت على مفاوضة الانجليز في المسئلة المصرية رغم إرادة الأمة وإرادة وكلائها.

لِمَ يتكون حزب سياسي يتشيع لعدلي باشا ويحتد في مناصرته وتأييده، ويحمل النبابيت والعصي لمحاربة خصومه، قبل أن يحرك يدا أو لسانا في القضيـة المصرية، وقبل أن يعلم الناس ما هو صانع فيها غدا، أيفي بالوعد الذي وعدهم به، أم تحول الحوائل بينه وبين الوفاء، وهل الثقة إلا نتيجة طبيعية للعمل والإحسان فيه؟

لِمَ يتنكر الناس لسعد باشا ويتحولون من مسالمين له الى محاربين، هل خان الأمانة التي عهدوا بها إليه؟ أم قصر في المطالبة بحقهم؟ والتعبير عن آمـالهم وأمانيهم؟ ام وعدهم بالنزول على رغبتهم فقادهم بالسيف والنـار إلى النـزول على رغبته؟ أم حول الحرب التي كانت بينهم وبين أعدائهم إلى حرب بينهم وبين أنفسهم؟ أم وضع الكمائم في أفواههم فلا ينـطقـون؟ والأغلال في أيديهم فلا يتحركون؟ أم نغّص عليهم حياتهم الاجتمـاعية وحوّل ابتساماتهم إلى دموع، ومسراتهم إلى أحزان وآلام، وآمالهم في الحياة السعيدة إلى يأس وكمد؟

ألم يصـدروا قرارهم العام في أمره يوم احتفلوا بقدومه من أوروبا احتفالا لم يظفر به ملك متوج، ولا فاتح كبير، فأي الأحداث أحدث بعد ذلك فيتنكروا له، ويضمروا له البغضاء بين جوانحهم؟

---

(٣٧)ـ ثغر: احدث ثغرة.

ألم يزل يهتف بالاستقلال التام لبلاده كما كان يفعل من قبل؟

ألم يزل يقارع الأعداء الغاصبين في حاضره، كما كان يقارعهم في ماضيه؟

ألم يحاولوا خداعه والعبث بضميره واستنزاله عن صلابته وعناده في التمسك بحقوق بلاده فلم يغتر ولم ينخدع، وآثر أن يستهدف لهذه الحرب الهائلة التي يثيرها عليه أعداؤه وأنصار أعدائه من بني وطنه على أن يفرط في ذرة واحدة من حقوق الوطن المقدسة؟

ألم يكن في استطاعته أن يقبل رآسة الوزارة حينما عرضوها عليه ليتمتع برؤية رجال الإدارة الذين يتنافسون اليوم في الإساءة إليه والنيل من كرامته جاثين على بابه يتلقون أوامره ويطيرون بها في كل شرق ومغرب فلم يفعل، وفضل أن يكون فردا من أفراد أمته واقفا بجانبها يشاركها في همومها وآلامها، ويشرب معها بالكأس التي تشرب منها، على أن يكون آلة في يد السياسة الانجليزية لقتلها، وخنق حريتها؟

أمن أجل هذا يبغضه الناس ويتنكرون له ولا يقنعون منه بذلك حتى يحملون في وجهه الهراوات والعصى ليمنعوه من النزول ببلادهم؟

هل تنازلوا عن مطالبهم الوطنية ونفضوا أيديهم منها، فهم ينكرون عليه تمسكه بها وتشدده فيها؟

هل صفت مياه الود بينهم وبين الانجليز، وحل الحب والوئام بينهما محل البغضاء والشحناء، فهم لا يريدون منه ان يكدر عليهم هذا الصفاء؟

هل كانوا يجاملون فيه السياسة الانكليزية يوم أجلوه وأعظموه وأحلوه ذلك المحل الاعظم من نفوسهم، فلما تنكرت له وجافته تنكروا له معها، وغضبوا لغضبها؟

هل كانت وطنيتهم نوبة من نوبات الجنون كما كان يشيع عنهم أعداؤهم، فلما استفاقوا رأوا أن ينتقموا من ذلك الإنسان الذي أثار في نفوسهم تلك العاطفة وأجج نارها في صدورهم؟

اللهم لا هذا ولا ذاك، وكل ما في المسألة أن الوزارة تريد البقاء في مركزها، ولا يمكنها البقاء فيه إلّا إذا نفذت المشروع الانجليزي المنتظر، ولا سبيل لها الى ذلك إلا إذا فضت الأمة من حول سعد باشا وحملتها على الالتفاف من حولها وتأييد سياستها، وقد عجزت عن أن تصل إلى

ذلك، فهي تزعمه وتدعيه، وتمثل هذه الرواية الغريبة التي هي أشبه الأشياء بقصة ذلك الرجل الذي أراد أن يتوسل الى قلب حبيبته بعمل من أعمال البطولة التي يحبها النساء ويمنحن الرجال عطفهن من أجلها، كأن ينجيها من غرق أو ينقذها من هوة، او يخلصها من أيدي اللصوص، وهو أعجز الناس عن ذلك، فاستأجر جماعة من الغوغاء واتفق معهم على تمثيل رواية خلاصتها أنهم يكمنون لها في طريق مرورها تحت جنح الظلام حتى إذا مرت بعربتها هجموا عليها وتظاهروا بأنهم يريدون قتلها وسلبها فيمر هو في تلك الساعة، كأنه سائر في طريقه مصادفة واتفاقا فيهجم عليهم هجمة شديدة تلقي الرعب في قلوبهم، ويطلق عليهم مسدسه المحشو بالرصاص الكاذب، فيخافون منه، ويفرون بين يديه، فرار الجوذر[٣٨] بين يدي الأسد الرئبال[٣٩]، وقد مثل الرواية كما وضعها، وكاد ينجح في تمثيلها، لولا أن الفتاة كانت ذكية الفؤاد، فقرأت على وجهه حين دنا منها آية التصنع والتكلف، فلم تحفل به، ولم تقدم له كلمة شكر على بطولته وشجاعته، وسارت في طريقها وهي تُغرب في الضحك عليه، وعلى غرابة تصوراته.

هذه هي المسألة لا أكثر من ذلك ولا أقل.

ما أجرأكم أيها القوم على الله وعلى الناس أجمعين!

أتكذبون على أربعة عشر مليونا من النفوس أحياء يرزقون، يقولون لكم بألسنتهم وأقلامهم وبجميع ما يعرفون من الطرق والوسائل إنهم أنصار سعد باشا وأعداء السياسة الانجليزية فتقولون لهم لا بل انتم أنصار عدلي باشا وأصدقاء السياسة الانجليزية؟

أيَسيل النيل وشاطئاه بالهاتفين للرجل، والمرحبين به، والخائضين عباب الماء الى سفينته، مخاطرين بأنفسهم علهم يرون وجهه، أو يسمعون صوته، حتى احتجتم في دفعهم وردهم إلى ضرب الرصاص، وإعمال السيوف، ثم تقولون بعد ذلك إن البلاد تكره سعد باشا ولا تطيق رؤيته؟ أترون بأعينكم لمعان السيوف في أيدي رجال البوليس، وتسمعون بآذانكم طلقات بنادقهم، وتشاهدون مطاردتهم الناس، وهدمهم الزينات، ووضعهم العقبات، ثم تقولون بعد ذلك إن الإدارة كانت على الحياد، وإن

---

(٣٨)ـ الجوذر: ولد البقر الوحشي.

(٣٩)ـ الرئبال: اسم من اسماء الأسد، وصفة تدل على الجراة.

حزب عدلي باشا القوي العظيم في أسيوط هو الذي أرغمها على منع سعد باشا من النزول الى البر؟

دعونا من سياسة الدسائس والمكائد، والمواربة والمداجاة، والتلفيق والتأويل، فهي سياسة عقيمة لا تصلح تربة مصر الطيبة الطاهرة لإنباتها واستثمارها، ودعونا من أساليب المكر والدهاء، والخبث والرياء، ومن قتل القتيل والسير وراء نعشه، وخنق الحرية والبكاء عليها، والإخلال بالأمن العام باسم حفظه وصيانته، وانتهاك حرمات الناس باسم حمايتها والذود عنها، وأمثال ذلك من الأساليب العتيقة البالية التي ذهبت وانقضى عصرها بانقضاء عصور الجهالة والسذاجة، وخذوا بنا في الحقائق المجردة الواضحة التي لا لبس فيها ولا إبهام.

إرفعوا الأحكام العرفية، والقوانين الاستثنائية، ودعوا الناس أحراراً يفكرون كيف يريدون، ويقولون ما يشاؤون، مما لا يخرج عن دائرة القانون والنظام، نصدقْ أنكم قوم أحرار تقدسون الحرية وتجلون شأنها.

تزحزحوا قليلا عن تلك الحائط الأجنبية التي تسندون إليها ظهوركم، وتستظلون بظلها، وتضربون تحت حمايتها، وليكن النضال بيننا وبينكم وجها لوجه، نصدق أنكم أصحاب رأي وعقيدة، وأنكم إنما تعملون بما توحيه إليكم آراؤكم وأفكاركم.

أشيروا على الوزارة بقطع المفاوضات، وقولوا لها إن الأمة غير راضية عنها، ولا عن نتيجتها، نصدق أنكم تنزلون على إرادة الأمة ورغبتها، وأنكم تحترمون إجماعها، وتنزلون على حكمها.

اعترفوا بالحقيقة الواقعة التي تعلمونها جميعا، وهي أن حزب الحكومة في مصر حزب مصنوع، موضوع، لو نُفِّس عنه الخناق قليلا وتخلى عنه العاملان المهمان، ذهب «المعز» وسيفه، لحظة واحدة لطار في أجواز الفضاء، ولما بقى منه في مكانه إلّا أفراد قلائل لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد واليدين، وأن مصر لا يوجد فيها إلّا حزب واحد تطارده الحكومة وعمالها وأنصارها، نصدق أنكم قوم مخلصون، لا تقولون إلّا ما تعتقدون.

هذه هي السبيل الوحيدة لما تطلبون إلينا من الثقة بكم، والاعتماد عليكم، واحترام آرائكم وأفكاركم، وإجلال مقاصدكم وغاياتكم، فإن

فعلتم فأنتم إخـواننا وأصدقاؤنا، وأكرم الناس علينا، وإلا فقد علمتم رأينا فيكم، وما نحن بظالمين ولا عادين، ونسأل الله لكم الهداية والتوفيق.

٤ جريمة الانشقاق*

لو أنكم أيها المنشقون بقيتم تحت لواء زعيمكم لم تفارقوه ولم تنتقضوا عليه إن لم يكن ذلك من أجله فمن أجل كرامة الأمة وشرفها، والإبقاء على وحدتها وجامعتها، ولو أنكم إذْ أبيتم إلَّا أن تفارقوه فارقتموه بهدوء وسكون لم تثيروا الثائرة عليه، ولم تطعنوا خلقه وشرفه وكرامته تلك الطعنات الداميات التي لا يحتمل وقعها في فؤاده أحقر الناس وأصغرهم في عين نفسه شأناً، ولو أنكم يا رجال الوزارة بدلا من أن ترسلوا رشدي باشا إليه يوم استعصى عليكم أمره ليؤذنه بالحرب وليقول له إننا قد قررنا رفض شروطك وإغفال أمرك وإطراحك والاستقلال بالعمل من دونك رغم أنفك وأنف الأمة التي تعتز بها أرسلتموه الى دار الوكالة البريطانية ليقول لصاحبها إننا قد عجزنا عن إقناع سعد باشا بالتنازل عن شروطه التي اشترطها للمفاوضة معكم، وليس في استطاعتنا وهو زعيم الأمة وقائدها وقلبها الخفاق أن نخاطر بمجافاته ومناوأته إلا إذا قررنا المخاطرة بوحدة الأمة وجامعتها، وذلك ما لا نرضاه لأنفسنا، وما يأباه علينا شرفنا وإخلاصنا، فها هي ذي وزارتكم فخذوها إليكم، فهي ونحن وكل ما تملك أيدينا فديً لأمتنا ووطننا، ولو أنكم إذ أبيتم إلا البقاء في مراكزكم، وإلا أن تذهبوا الى المفاوضة رغم إرادة الأمة وإرادة زعيمها ذهبتم بإسمكم وحدكم دون أن تفتحوا باب العرائض والوفود وتُداخلوا الأمة في شأن الثقة والتأييد، فإن عدتم لها بالنجاح شكرت لكم فضلكم، وأوْلتكم ودها وثقتها، وإلا فلا يعنيها من فشلكم وإخفاقكم شيء.

لو أن ذلك كله كان لبقيت الأمة طول حياتها في موقفها الجليل العظيم الذي وقفته في أعوامها الثلاثة الماضية، موقف الاتحاد والتضامن، والقوة واليأس، والعزة والشرف، ولظلت سائرة في طريق جهادها الوطني تحت قيادة زعيمها حتى تصل الى الغاية التي رسمتها لنفسها، أو تموت من دونها.

* كتبت على أثر فشل عدلي باشا وشيعته في المفاوضة الرسمية التي مزقوا في سبيها وحدة الأمة واهلكوا ما لا يحصى من رجالها ونسائها واطفالها قتلا وسجنا وتعذيبا ثم كانت النتيجة ان عرض الانجليز عليهم مشروعا اقل من المشروع الذي عرضوه على سعد باشا فرفضه، وكانوا على استعداد لقبوله لولا خوفهم من الامة وغضبها. (هامش الطبعة المجهولة)

فأنتم يا خصوم سعد باشا وخصوم الأمة جميعها المسؤولون عن ذلك الشمل المبدد، والأديم الممزق، والجامعة التي شوه وجهها، وزال رونقها وبهاؤها، وعن حوادث الاسكندرية وطنطا وأسيوط وجرجا وجميع المظالم التي نزلت بالوطنيين الأبرياء في الأشهر السبعة الماضية من قتل وسجن، وإعدام وتشريد، وتعذيب واضطهاد، وعن تلك النهاية المحزنة الأليمة التي انتهت بها المفاوضة الأخيرة، فاعترفوا بذلك، ولا تكتموه الناس، عسى أن تجدوا لكم في زوايا بعض القلوب مكانا للرحمة بكم، والإشفاق عليكم، ولا تحاولوا إلقاء التبعة على غيركم، فتضموا الى جرائمكم الماضية جريمة العناد والإصرار.

من الذي عهد إليكم بالاشتغال بقضية مصر السياسية؟ وأين هو المؤتمر الوطني أو الهيئة النيابية أو الجمعية الوطنية التي وكلت إليكم ذلك واختارتكم له؟ ومتى كانت الشؤون السياسية ميدانا للتجارب والاختبارات ينزل فيه كل من أراد أن يجرب حذقه ومهارته؟

إن الأمة لم توكل في قضيتها غير رجل واحد، قد اختار بضعة أفراد منكم فيمن اختاره من اصدقائه ومعارفه للاستعانة بهم على عمله، ثم لم يحمد أمرهم حين أحسَّ منهم الغدر به وبالقضية المصرية فعزلهم وعزلتهم الأمة معه، فما هذا التشبث البارد بعضوية الوفد، والوكالة عن الأمة، والنطق باسمها، والمفاوضة عنها، والأمة لا تعرفكم، ولا تفهمكم، ولا صلة نفسية بينها وبينكم، ولم تعتقد في وقت من أوقاتها أنكم وكلاؤها أو نوابها، أو أمناؤها على سياستها، حتى أوردتموها بإلحاحكم وفضولكم وسوء سياستكم هذا المورد الوبيل.

لا تلوموا سعد باشا على فشلكم وإخفاقكم، ولوموا أنفسكم، فقد أبلى الرجل البلاء العظيم في نصحكم وتحذيركم، وتنبأ لكم بكل ما وقع لكم اليوم وكأنما كان يطالع صحيفة من صحائف الغيب فلم تكترثوا له، ولم تحفلوا بنصحه.

قال لكم إن المفاوض الانجليزي لا يحفل ولا يعبأ إلا بمفاوض يعتقد أنه يمثل أمته، وينطق بلسانها، نطقا حقيقيا لا تمثيليا، فاتهمتموه بحب الرآسة والسعي وراء الشخصيات، ورميتموه بسوء النية والقصد.

وقال لكم أن الانجليز لا يريدون بفتح باب المفاوضة معكم إلا الاستعانة بكم على تمزيق شمل الأمة وتبديد وحدتها، وهي القوة الوحيدة

التي تملكها ولا تملك غيرها، وألَّا خير يرجى من هؤلاء القوم لكم، فثرتم في وجهه، وسمحتم لأنفسكم إن تسيئوا الظن به، ولا تسيئوه بالانجليز.

وقال لكم إحذروا أن تخطوا خطوة واحدة في طريق المفاوضة قبل أن تستوثقوا لأنفسكم بمرسوم سلطاني يحدد موضوع المفاوضة ويكون أساسا لها، فأنكرتم ذلك عليه، وزعمتم أن في أيديكم من الوعود المؤكدة والأقسام المغلظة ما يغنيكم عن هذا الاحتياط والاستيثاق.

وقال لكم إن الانكليز يخافون أكثر مما يستحيون، وأنهم لا يعرفون في السياسة مودة ولا إخاء، وإنهم لا يريدون من استبدال مفاوض بمفاوض إلا الهرب من شدة الأول، والطمع في لين الثاني، فسفهتم رأيه، وزعمتهم أنهم قوم ذوو أخلاق كريمة، وآداب عالية، وعواطف شريفة، وأمزجة رقيقة، وأنهم يمنحون الصديق الذي يحاسنهم، أضعاف ما يمنحون العدو الذي يخاشنهم.

وقال لكم في نهاية الأمر لا إرادة لي ولا لكم في ما تقضي به الأمة، وما تراه في شأني وشأنكم، فلنتحاكم إليها، ولننزل جميعا على حكمها، فأكبرتم ذلك منه، وسميتموه رجلا ثائرا متمردا لا يخضع لقانون ولا نظام.

قال لكم كل شيء، وحذركم من كل شيء، فَلِمَ تلومونه اليوم، وتلقون تبعة إخفاقكم عليه، ولِمَ يملأ بغضه صدوركم حتى يصرفكم عن الالتفات الى عدوكم الحقيقي الذي لعب بكم، وعبث بعقولكم، وكون منكم جيشا جرارا لمحاربة أمتكم، وتنغيص عيشها، وتكدير صفائها، حتى إذا قضى حاجته منكم، وفرغ من تمزيق شمل الأمة وصدع وحدتها على يدكم، أدار وجهه عنكم، ونَبَذكم نَبْذَ النواة بلا رحمة ولا شفقة، وهذا هو المعنى الحقيقي للمفاوضة التي أجراها على أيديكم، وهذا هو كل الغرض المقصود منها.

ليسأل عدلي باشا اللورد ملنر عن هذه النتيجة المحزنة التي انتهى إليها أمره، فهو الذي خدعه وغشه، ومناه الأماني الكاذبة، ووقف به على رأس ذلك الطريق الذي ظن أنه ينتهي به إلى زعامة الأمة وقيادتها، ثم لم يلبث أن خذله وتخلى عنه، بل استقال من وظيفته حتى لا يتقيد بالوعد الذي وعده إياه.

ليسأل المنشقون عدلي باشا عن السقطة الأدبية العظمى التي هوت بهم من سماء العزة والشرف، الى حضيض المهانة والضعة، فهو الذي

زين لهم الانشقاق على زعيمهم، والخلاف عليه، وأغراهم باتخاذ خطة في السياسة غير خطته، ففعلوا فكان ذلك عاقبة أمرهم، وخاتمة مطافهم.

ليسـأل الوزاريـون جميعا المنشقين والوزراء عن خيبة الأمل التي لحقت بهم، والصـدمة الكبرى التي اصطدمتها آمالهم وأمانيهم، فهم الذين خلبـوهم واستهـووهم، وأطمعـوهم في الجوائز والمنح، والوظائف والرتب، يوم يتم لهم الانتصار على أيديهم، فلا هم أدركوا ما أملوا، ولا هم بقوا في صفوف أمتهم يعملون معها، ويجاهدون في سبيلها.

ليسأل كل منكم صاحبه عن نكبته التي نزلت به، ولا تسألوا سعد باشـا عن شيء، ولا تلومـوه في أمر، بل اشكروا له فضله عليكم، ويده عندكم، فلولاه ولولا جهاده ومعارضته، ووقوفه في وجهكم ووجه مشروعكم وقفة الأسد الهصور، لتمت على يدكم الجريمة الكبرى، جريمة تسليم البلد الى أعدائه، ولسجل التاريخ لكم في صحائفه أنكم أصحاب تلك الجريمة ومقترفوها.

أفهمتم الآن أن سعـد باشـا أصدق منكم نظرا، وأعلى رأيا، وأنفذ بصـيرة في بواطن الأشياء، وأنه ما كان يعارضكم يوم عارضكم حبا في الرآسة، أو سعيا وراء الشخصيات كما كنتم تزعمون، بل حرصا على مصلحة البلد، وضناً بخلاصه وإنقاذه؟

أفهمتم الآن أنه لو كان نزل على رأيكم وخضع لأوهامكم وأحلامكم ـ وهذا هو ذنبه الوحيد الذي تأخذونه به ـ لدفن معكم في الهوة التي دُفنْتُم فيها اليوم، ولم يبق في الامة من بعده صوت ينادي بحريتها واستقلالها؟

أفهمتهم الآن أنـه لا يوجـد بينكم سياسي واحد يستطيع أن يكتنه بواطن السياسة ويستشف أعماقها، ويحسن إدارة معزكتها إدارة كافلة بفوز الأمة وانتصارها، أو بانقاذها من خطر الوقوع في الأسر على الأقل، وأنه لو تم على يدكم إسقاط سعد باشا كما كنتم تريدون لطال حزنكم وبكاؤكم يوم تطلبون غيره ليقوم مقامه ويملأ فراغه فلا تجدون؟

ماذا كان يظن أعضاء بعثتكم الرسمية بأنفسهم يوم ذهبوا للمفاوضة على الصـورة التي ذهبـوا عليها، وكيف كانوا يتصورون أن المفاوض الانكليزي يعطيهم الاستقلال تاما أو ناقصا وقد تقدموا إليه بيد مُصْفرة من كل قوة يستطيع المفاوض أن يعتمد عليها في مقارعة خصمه واستنزاله

على حكمه؟

لا يستطيعون أن يقولوا له إن الأمة قوية مسلحة تستطيع أن تنتصف لنفسها بنفسها إن لم تنصفها، لأنه يعلم كما يعلمون أنها ضعيفة عزلاء لا تحمل من الأسلحة أكثر من عصى «الساحل» ونبابيت «الحواتكة»[٤٠] ولا أن يقولوا له إنها متحدة يدا واحدة والاتحاد قوة تقوم مقام القوة المادية، لأنهم قدموا إليه قبل ذلك الوثائق والمستندات الدالة على أنها منقسمة على نفسها وأنهما فريقان سعديون وعدليون يقتتلون في كل مكان يلتقون فيه كما كان يفعل البروتستانت والكاثوليك في ايرلندا والمسمون والوثنيون في الهند، ولا أن يقولوا له إنها متشددة في مطالبها الوطنية لا تقبل فيها مساومة ولا مهادنة، لأنهم قالوا له قبل ذلك وأقسموا على ما قالوا أن اكثريتها قد انفضت من حول سعد باشا والتفت من حولهم، أي أنها قد تحولت من خطة التشدد والتطرف الى خطة القناعة والاعتدال، ولا أن يقولوا له إانها راقية متمدنة تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها، لأنه يعلم حق العلم الأساليب الوحشية التي اتخذوها في سبيل الحصول على عرائض الثقة التي قدموها اليه وماذا صنعوا بأمتهم في سبيلها، فماذا يعنيه من أمرهم بعد ذلك؟

لا رعاكم الله أيها القوم، ولا رعى يوما اتصلنا بكم فيه، فقد أفسدتم علينا كل شأن من شؤون حياتنا، وهدمتم بحمقكم وخرقكم وسوء رأيكم في لحظة واحدة ذلك البناء الفخم الجميل الذي قضينا في بنائه ثلاثة أعوام كاملة، ولم تقنعوا منا بذلك حتى جئتم اليوم تمنون علينا بأن بعثتكم قد قطعت المفاوضات بشرف وإباء وأن لها الحق في الافتخار بذلك.

مرحى مرحى! ألم تكن المفاوضات مقطوعة من قبل اليوم على يد سعد باشا؟ فهل كان غرض البعثة من ذهابها أن تقطعها مرة أخرى حتى إذا تم لها ذلك عادت تفخر بنفسها وتفخرون بها وتدعون الناس الى الاحتفال بها عند قدومها!

أتريدون أن نحتفل بها لنجدد بذلك عصر الجاهلية الأولى أيام ضراعة الشعوب وذلها، ومهانتها واستخذائها، وتقبيلها يد ضاربها حين يضربها، وشرب نخب انتصاره عليها!

---

(٤٠)ـ الاشارة هنا الى منطقة ساحل روض الفرج بالقاهرة، وكذلك منطقة الحواتكة في صعيد مصر حيث وقعت المصادمات بين انصار سعد وخصومه.

أتـريدون أن نحتفل بها ليتحدث الناس عنا أننا قد رضينا بجميع المظالم التي نزلت بنا، وأغضينا جفوننا على قذاها، فيطمع فينا كل طامع، ويعبث بحقوقنا كل عابث؟

أتـريـدون أن نحتفـل بها لتبرز لنا كل يوم هيئة جديدة تفتح باب المفـاوضـة في القضيـة المصرية ثم تقفله لتتمتع بكلمات الثناء عليها، ومشهد الاحتفال بها، ونحن فيما بين هذا وذاك هلكى ضائعون؟

أتريدون أن نحتفل بها قبل أن نعلم هل نفضت يدها من المفاوضة الى الأبد، أو أنها قطعتها اليوم لتصلها غدا، وهل صرفت النظر عن عرض مشروع كِرْزُن[٤١] على الأمة، أم تريد عرضه من طريق غير طريقها، وهل الوزارة عازمة على البقاء في مركزها، أم تريد أن تنحلّ لتتألف مرة ثانية بصورة أخرى غير صورتها ليبقى لنا شقاؤنا وبلاؤنا الذي نحن فيه أبد الدهر، وهل برئنا من دائها تمام البرء، أم لا تزال بقية منه كامنة في أعماق صدورنـا لا نعلم ما الله صانـع بهـا؟ وبعد فأين هـي المفاوضة التي تزعمون أنها قامت بها، أو أنها قطعتها أو وصلتها؟

إنهـا لم تفعل شيئا سوى إنها تقدمت لأداء الامتحان أمام اللورد كِرْزن في القدرة على حمل مشروعه الى الأمة وتنفيذه فيها فأخفقت فعادت أدراجها.

فهل هذا هو الفخر الذي تزعمونه لها، وتَنحَلونها إياه، وتريدون حملنا بالأساليب الإدارية المعهودة على الاحتفال بها من أجله؟

إن كان تمـزيق شمـل الأمـة، وتبـديد وحدتها، والاستعانة بالقوة الأجنبيـة على إخضـاعهـا وإذلالها، وسفك الدماء البريئة في الميادين والشوارع، وزج الوطنيين المخلصين أفواجا أفواجا في اعماق السجون، وابتيـاع الذمم والضمـائر، ومحاولة إفساد الأخلاق القومية في جميع الدوائر والهيئات حتى في المدارس والمعابد والمحاكم، والتفريق بين الوالد وولده، والأخ وأخيـه، والصـديق وصـديقه، والزوج وزوجته، وإفساد سياسة الأمة عليها، وإطماع أعدائها فيها، والهبوط بالمفاوضات بعد ذلك

---

(٤١)- اللورد جورج كيرزون G. Curzon (١٨٥٩-١٩٢٥) سياسي بريطاني شغل مناصب: نائب الملك في الهند، وزير الحربية، وزير الخارجية على التوالى. وحين كان في المنصب الاخير فاوضه عدلي يكن في لندن حول استقلال مصر وجلاء الانكليز، ولكن المفاوضات التي جرت في نوفمبر ١٩٢١ -فشلت بسبب استغلال الانكليـز للخلاف بين عدلي وسعد، واشتراطهم ابقاء حامية انكليزية في مصر، والاشراف على الشؤون الخارجية، وفصل السودان عن مصر.

كله وبعد تضحية جميع هذه الضحايا من مشروع ملنر إلى مشروع كرزن، مجدا وفخرا يستحق أصحابه الإجلال والإعظام، والاحتفاء والاحتفال، فرحمة الله على الفضيلة، وليبك الباكون عليها وعلى مصيرها المحزن الأليم.

كونوا أيها القوم كيفما شئتم، واضمروا لنا من الشرور ما أردتم، ورتبوا لنا في أذهانكم كل يوم مكيدة جديدة، أو دسيسة مبتكرة، فمحال ان تنالوا منا منالا، أو تصلوا من طريقنا الى غاية، فسنبني بعون الله وقوته كل ما هدمتم، ونصلح كل ما أفسدتم، لا نضعف ولا نفتر، ولا نهن ولا نيأس، فما خلقت الأمم إلّا للجهاد، ولا لذة للحياة إلّا بالعمل، حتى يأتي عليكم ذلك اليوم الذي تقتنعون فيه تمام الاقتناع بأن في الأمة رأيا عاما جديدا لا يسمح لرأس معوج يريد أن يرتفع على حسابها، وحساب ظلمها وإساءتها، بالبروز من مكمنه، وأن لا قوة في مصر غير قوة الشعب، ولا حكم فيها إلّا حكمه.

٥ عبرة الدهر *

الآن أمِنْتَ على مصر أبد الدهر، وأيقنت أن الباطل ظل زائل لا ثبات له، وأن الحق صخرة عاتية لا تزعزعها العواصف، ولا تعبث بها عاديات الأيام.

فقد مرت بي في غضون الأشهر الفائتة ساعات أعترف أني خفت فيها على الحق ان يغتاله الباطل ويصرعه، عندما أشرفتُ على ذلك الميدان الواسع الفسيح - ميدان المعركة السياسية المصرية - ورأيت ذلك الجيش اللجب العرمرم، جيشَ الباطل زاحفاً بخيله ورجله، وفي مقدمته القوة الانجلَيزية بمدافعها وطياراتها، وصواعقها ورجومها، وفي مؤخرته القوة المصرية ببنادقها وسيوفها، وسياطها وعصيها، وفي أحد جناحيه الوزارة يحيط بها أنصارها وصنائعها، وذوو الحاجة إليها، وفي الجناح الآخر المنشقون يحيط بهم خدمهم وفلاحوهم وأجراؤهم وأهلوهم، وفيما بين هذا وذلك الكتّاب الكاذبون، والخطباء الخادعون، والدعاة الخبثاء، والجواسيس الدهاة، والأحكام العرفية، والمجالس العسكرية، والقوانين الاستثنائية، والأكاذيب والأراجيف، والصور والتهاويل، وكل ما يمكن أن يسمى قوة يهجم بها هاجمٌ على خصمه ليسلبه في آن واحد قوة جسمه، وقوة قلبه، وقوة يقينه، وقد ذَهَبتْ لذلك الجيش في آفاق السماء جلجلةٌ كجلجلة الرعد القاصف، وانتشر له في جميع الأنحاء بريق يخطف الأبصار، ويعشى الأنظار، فالتفتُ إلى الجانب الآخر من الميدان، فرأيت سعد باشا واقفا في مكانه أعزل لا سلاح معه، ولا يحيط به إلا سواد الأمة الأعزل مثله، فانبعثت من صدري صرخة الرعب والخوف، وخيّل إليّ أن الرجل هالك هو وأمته، ما في ذلك ريب ولا شك، ثم هجم ذلك الجيش العظيم هجمته الكبرى التي لم يسمع بمثلها في تاريخ هجوم الأقوياء على الضعفاء، والتي استمرت سبعة شهور كاملة لا تهدأ ولا تفتر، فثبت الزعيم في مكانه ثباتا غريبا مدهشا، وكأنما استحال إلى كرة فولاذية ملساء تتساقط عليها السهام ثم تتزلق عنها، وربما أصابت جسمه بعض الجرحات، ولكن لم يستطع سهم واحد أن ينفذ إلى قلبه، وثبتت الأمة

* كتبت لمناسبة فشل المنشقين في المفاوضة الرسمية وتضعضع امرهم بعد ذلك وانفضاض انصارهم من حولهم بعد فشلهم (هامش الطبعة المجهولة)

بثباته فلم تهن ولم تضعف، ولم تعبأ ولم تحتفل، ولم تأخذ بلبها الصور والتهاويل، ولم تنل من نفسها الأكاذيب والأراجيف، ولم تعبث بعقيدتها الألسنة الخالبة، والأقلام الخادعة، وها هي ذي الأيام قد أخذت تدور دورتها، فانقلب الجيش المهاجم مدافعا، والجيش المدافع مهاجما، ولله في خلقه شؤون، أنظر إليهم ها هم أولاء يتقهقرون، وإنهم كانوا لا يزالون يضربون، ها هي ذي ألسنة خطبائهم تتلجلج في افواههم، وأقلام كتابهم تضطرب في أيديهم، ها هي ذي وجوههم قد علتها غبرة الموت، وقلوبهم تتنزى بين جوانحهم تنزى الكرة في أيدي ضاربيها، ها هي ذي أصواتهم قد مازجها أنين محزن كأنين المحتضر، وصرخاتهم قد استحالت إلى عواء كعواء الذئاب، ها هم أولاء يخلطون ويهذون، ويسبون ويشتمون، ويصخبون ويحتدمون، أي أنهم يلجأون الى السلاح الأخير الذي يلجأ إليه المقهور في ساعته الأخيرة، ها هم أولاء يخافون من كل شيء حتى من خطبة يخطبها أزهري في مسجد، أو كلمة يلقيها طالب في متنزه، أو صرخة يصرخها صارخ في محفل، ومن همس الهامس في أذن أخيه، ونظرة الصاحب في وجه صاحبه، ومن قدوم بضعة أفراد من أعضاء مجلس النواب الانجليزي الأحرار إلى مصر لا يملكون إلّا قليلا من الحول والقوة، ومن سفر الزعيم من بلد إلى بلد لا يحمل إلا قلبه، ولا يملك إلّا لسانه.

ما بالهم، وما الذي دهاهم؟ ومم يخافون، والقوة في أيديهم، والأيام مواتية لهم؟ والدهر نازل على حكمهم، نعم ولكنهم مبطلون، والباطل لا قوة له، وإن اجتمعت في يده جميع القوى!

تلك عبرة الدهر التي يجب أن يعتبر بها أولادنا وأحفادنا من بعدنا.

فلتقرأوا يا أبناء الأجيال المقبلة هذه الصفحة المجيدة من تاريخ حياتنا لتعلموا أن رجلا واحدا من أبناء أمتكم تمسك بالحق فاستطاع أن يثبت امام أقوى قوة في العالم، وأن ثباته قد أنقذ مصر من أعظم نكبة كان يدّخرها لها الدهر في طيات تصاريفه، ولتحنوا رؤوسكم أمام هذه الذكرى المجيدة إجلالا لها، وإعظاما لشأنها، ولتجعلوها مثلكم الأعلى في مستقبل حياتكم، وعبرتكم البليغة التي تغنيكم عن جميع العظات والعبر.

الآن أمنت على مصر أبد الدهر، فما في العالم قوة تستطيع أن تهاجمها أعظم من هذه القوة، وليس في الامكان ان تحل بساحتها نكبة أهول من هذه النكبة، وما أحسب إلّا أن الله تعالى قد أراد أن يبلوها، ويختبرها،

فامتحنها بهذه المحنة الفادحة ليرى كيف يكون صبرها واحتمالها، وقوة يقينها وإيمانها، فيمنحها من حسن الجزاء، على قدر ما تبذل من حسن البلاء، وقد أبلت بلاء لم يبله أحد قبلها، فلتنتظر الجزاء الأوفى، والمثوبة العظمى، ولتهنأ منذ اليوم بالمستقبل الباهر السعيد.

٦ إلى أعدائنا *

١

نعم إنكم أقوياء جدا، بل لا توجد قوة في العالم توازي قوتكم، ولكننا على ضعفنا وخلو أيدينا من السلاح والعدة أقوى منكم، لأنكم حاربتمونا بسلاح الخديعة والمكر الذي ألفتم أن تنتصروا به على الشعوب الشرقية قرونـا عدة فانهـزمتم أمامنا، واستطاع هذا الشعب الشرقي الصغير حديث العهد بالسياسة وأساليبها ومناوراتها أن يدرك خبايا مقاصدكم ومراميكم، وأن يمزق عن وجوهكم ذلك الستر الكثيف الذي كان يجللها، وأن يقـول لكم بصوته العالي المرتفع: لا أقبل الخدع والألاعيب، فإما الاستقلال تاما صريحا لا ريبة فيه، أو لا شيء.

إننا أقوى منكم لأنكم لم تستطيعوا أن تخدعونا عن أنفسنا، ولا أن تستنزلونا عن عقيدتنا ويقيننا، أما تلك القوة الميكانيكية التي تهرعون بها في شوارع البلاد وأزقتها، وتملأون بها وجه الأرض وجو السماء، فهي مما لا يفخر به الفاخر، ولا يُدل به المُدِل، لأنها شيء، والصفات النفسية والمزايا العقلية شيء آخر.

هل استطعتم بعد مقامكم بيننا أربعين عاما أن تصطنعوا رجلا واحدا من بين الملايين الكثيرة يحبكم ويخلص لكم؟

هل استطعتم بعد أن سقط ذلك البرقع الكثيف عن وجوهكم، وبدت للناس صفحتكم ان تجدوا ثمانية أشخاص يؤلفون لكم الوزارة التي تريدونها لتستعينوا بها على تنفيذ مشروعكم ؟

هل تستطيعون أن تزعموا أنكم على ثقة تامة بإخلاص شخص واحد من هؤلاء المـوظفين الكثيرين الذين قضى عليهم سوء حظهم أن يعملوا معكم، ويخضعوا لسلطتكم، حتى الذين غمرتموهم منهم بالنعم، وملأتم عليهم ديارهم رغدا وهناء؟

هل تستـطيعـون أن تبتاعوا بأموالكم الكثيرة التي لا حد، لها قَلِما

---

* كتبت هذه السلسلة على اثر نفي سعد باشا وصحبه بامر السلطة الانكليزية تمهيدا لتاليف وزارة اخرى من اولئك المنشقين تستطيع ان تنفذ مشروع كرزن بصورة اخرى بحيث لا تجد امامها من يفضحها ويكشف خبيئتها. (هامش الطبعة المجهولة)

مصريا صميما يتولى نشر دعوتكم، وتأييد سياستكم، كما تفعلون في كل مكان حتى في أوروبا وأميركا؟

إذن أنتم ضعفاء، ونحن أقوياء، ولنا أن نفخر بهذه القوة التي نعتمد فيها على شرف أخلاقنا، وعزة نفوسنا، ومتانة عقيدتنا، وشدة إخلاصنا لوطننا، وليس لكم أن تفخروا بتلك القوة التي تعتمدون فيها على السيف والنار كما كان يفعل «الهون» في اوروبا، «والمغول» في آسيا، لأنها أقرب إلى صفات الوحشية وغرائزها، منها إلى روح المدنية ومزاجها.

نعم إنكم اعتقلتم سعد باشا، ولكن بعد أن صرع زعماءكم وقادتكم في ميـدان السيـاسـة، وأفسد عليكم تلك المؤامرة العظمى التي كنتم تريدون بها اعتقال مصر واستعبادها إلى الأبد، فقد صودر سعد باشا واعتقل، ولكن مصر قد نجحت.

في استـطاعتكم أن تصبغـوا وجـه مصر بالدماء، وأن تملأوا بطنها بالأشلاء، ولكن ليس في استطاعتكم ان تتقوا نظرات الاحتقار والازدراء التي نلقيها عليكم حين نراكم، ولا ان تطفئوا نار الحقد والموجدة التي تنبعث من ألسنتنـا وصدورنا إلى وجوهكم، ولا أن تنالوا منالا من تلك العقيدة الراسخة في قلوبنا، وهي أنكم أضعف الضعفاء، وإن كنتم أقوى الأقـويـاء، وأن هذه القوة التي تعتمدون عليها وتُدلّون بها ليست قوة السياسة، ولا قوة الفكر، ولا قوة التدبير، وانما هي قوة الشر والغضب.

اقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا، ألفوا الوزارة ولكن من رجالكم لا من رجالنا، إملكوا علينا كل شيء الا قلوبنا وأفئدتنا، احكمونا باسم الاحكام العـرفيـة، والأساليب العسكرية، لا باسم القوانين الشرعية، والأحكام السمـاويـة والأرضيـة، افتخروا بأنكم قمعتم الحركة المصرية، وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم، ولكن لا تفخروا بأنكم حللتم مشكلة مصر، وفرغتم من قضيتها.

إنكم لا تحاربوننا من أجل احتلال البلاد فأنتم محتلوها، ولا من أجل الاستيلاء على مواردها وأرزاقها فهي جميعها تحت سلطتكم وسيطرتكم، ولا من أجل إطفاء الثورة وقمعها، فالأمة التي لا سلاح لها لا ثورة فيها، ولكنكم تحاربوننا من أجل إرغامنا على الاعتراف بمركزكم الشرعي في مصر، وما دمتم لم تصلوا إلى هذه الغاية بعد بذلكم ما وهبكم الله من دهاء سياسي وحيلة عقلية في هذا السبيل فنحن المنتصرون، وأنتم المنخذلون.

ماذا جنى الرجل عليكم فتقفنوه إلى أقصى بقعة من بقاع الأرض وما هو بثائر ولا محارب، ولا عرف له الناس موقعا يدعو فيه بدعوة الجاهلية الأولى، أو ينطق فيه بكلمة الدم التي ينطق بها الثائرون في كل شعب وأمة، ليستثيروا بها حفائظ النفوس، ويدفعوا بها الرجال إلى مواطن الموت؟

أين هو الجيش الذي قاده لمحاربتكم، وأين هي الجموع التي سلحها وزحف بها عليكم، وأين هي الثورة التي أشعل نارها، أو الفتنة التي أحيا مواتها، فتعاقبوه هذا العقاب الشديد الذي اعتدتم أن تعاقبوا به زعماء الثورات، وقواد المؤامرات، لا بل انكم ما عاقبتم زعماء أعدائكم الذين رَوَوْا الأرض بدمائكم، وغطوا وجهها بأشلائكم، ونالوا منكم أشد ما ينال محارب من محاربه بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد، وقد كنتم تزعمون ويزعم كثير من الناس لكم أنكم أمة العدل والقانون، وأن الشمس لا تطلع في مدار من مداراتها على محكمة مثل محكمتكم، وقضاة مثل قضاتكم، وميزان قسط وإنصاف مثل ميزان قسطكم وإنصافكم؟

إن الرجل لم يكن جبانا ولا رعديدا، ولا من المغرقين في حب حياتهم، أو الضانين بها على مواقف المجد والشرف، ولو شاء أن يشعل نار الثورة في كل مكان، وأن يقود الرجال إلى مواطن الموت لفعل، ولكنه لم يفعل، ولا فكر في شيء من ذلك، لأنه من فريق الدعاة، لا من فريق الثوار، ولأنه رجل عاقل حكيم لا يخطو الخطوة الواحدة حتى يقدر لها موضعها، وكانت لهجته الدائمة التي لا تفارقه في جميع مواقفه ومشاهده الدعوة إلى السكون والهدوء، والعمل في دائرة القانون والنظام، والمطالبة بالحقوق الوطنية بالطرق المشروعة السائغة، أي أنه كان رجل حجة وبرهان، لا رجل نزال وطعان، فلماذا لم تعرفوا له هذا الشعور الطيب الشريف الذي كانت تشتمل عليه سريرة نفسه، ولِمَ لم تحترموا فيه تلك العاطفة الطاهرة الكريمة التي كانت تتدفق من بين جنبيه شرفاً ونبلا، وتسيل رحمة وإحسانا؟

إنكم أقوياء جدا، ما نازعكم في ذلك منازع، وها هي جيوشكم وأساطيلكم وأسلحتكم ودباباتكم وطياراتكم تملأ البحار والقفار، والسهول والجبال، والتهائم[٤٢] والنجود، والشوارع والأزقة، والأجواء

(٤٢) تهائم جمع تهامة وهي الأرض المنخفضة بين ساحل البحر وسلسلة الجبال

والآفـاق، فماذا عليكم لو أنكم تركتم الرجل في مكانه هادئا مطمئنا، لا تَهيجونه ولا تزعجونه، حتى إذا أثار عليكم الثائرة التي تخشونها لجأتم إلى قوتكم فقمعتمـوهـا كما تفعلون اليوم، وقد قامت لكم الحجة عليه، واعتصمتم في أمره باليقين الذي تطمئن إليه نفوسكم، وتنقطع به حجة المـؤاخـذين لكم، والناقمين عليكم، وإن كانت الأخرى كفيتم أنفسكم وكفيتمونا معكم هذا الشر المستطير بيننا وبينكم، وحقنتم تلك الدماء التي سالت في بطاح الأرض بلا جريرة ولا سبب.

نؤكد لكم يا قوم أن الأمة المصرية لم تكن آلة في يد سعد باشا يصرفها كيف يشـاء كمـا وهمتم، أو كما أوهمكم ذلك الضعفاء منا، وأن روح الوطنية المنتشرة فيها ليست روحا صناعية كاذبة يحييها وجوده، ويميتها نفيه، وأن نفيه إلى أقصى بقعة من بقاع الأرض، بل الذهاب به إلى مصير أعظم ويلاً وهولاً من هذا المصير، لا يحل عقدة واحدة من عقد المسألة المصريـة، ولا يغـير وجهـا واحدا من وجوهها، ولا ينتقل بها خطوة من مكانها، أي إنه لا يُسْمَح للمستوزرين بتأليف الوزارة التي يريدونها، ولا براحتهم وهـدوئهم فيهـا إن هم ألفوها، ولا يفسح لأولئك القوم الذين تسمونهم المعتدلين، ونسميهم بالمساكين، مجالا أوسع من المجال الذي يضـطربون فيه، ولا يفتح في جدار الوطنية ثغرة صغيرة تتمكن مكيدة المشروع الكرزني أو الملنري من الانحدار منها. وإنكم لم تستفيدوا من كل ما عملتم شيئا سوى أنكم ظلمتم الرجل ويُؤتَم بإثمه، لا أكثر من ذلك ولا أقل.

ماذا جنى سعد باشا عليكم سوى أنه كان يطالبكم بحقه وحق بلاده بالحجة والبرهان، ولا يوجد في تاريخ من تواريخ الأمم القديمة أو الحديثة قانون متمدين أو متوحش يعتبر هذا العمل جريمة يعاقب عليها صاحبها بازعاجه من مأمنه، وإقصائه عن أرضه، ووضع ذلك السد المنيع بينه وبين جمال الحياة ورونقها؟

لِمَ تنتزعونه من سرير نومه قبل أن تنبعث الطير من وكناتها، وتطيرون به إلى ذلك المنفى القصي البعيد الذي لا يعلم الا الله ما يكون مصيره فيه، وما هو بقاتل، ولا سارق، ولا مختلس، ولا داع الى ضلالة، ولا قائم بفتنة، ولا طلب شيئا سوى أن يعيش هو وقومه أحرارا كما تعيش الطيور في

أجوائها، والسوائم في مراتعها، والأسماك في دَأْمائها[٤٣]؟

لِمَ لم ترحموا شيخوخته ومرضه، وأنه رجل أعزل ضعيف لا يملك من القوى غير لسانه الذي يذود به عن وطنه وقومه، ومتى كانت الألسنة والأقلام جيوشا وجحافل تنازلها الجيوش والجحافل؟

لِمَ لم تحاجّوه وتقنعوه بحقكم الذي تزعمونه لأنفسكم بدلا من ان تقولوا له: «إما الصمت وإما الموت»؟

ما أغرب شأنكم أيها القوم! وما أعجب تصوراتكم! أفيما بين يوم وليلة تنقلبون معنا من أصدقاء أوفياء تجالسوننا على منضدة واحدة لتفاوضونا على قاعدة الحرية والمساواة، والود والإخاء، الى أعداء حاقدين واجدين، تسفكون دماءنا، وتمزقون أشلاءنا، وتشردون زعماءنا تحت كل نجم وكوكب، وموقفُنا لم يتغير ولم يتبدل، سوى أننا وقفنا لحظة أمام المشروع الذي قدمتموه الينا ننعم النظر فيه، هل هو استقلال حقيقي كما تقولون، أم شيء غير ذلك تسمونه استقلالا؟

نقسم لكم لقد جعلتمونا نرتاب فيكم، وفي كل ما تطلع عليه شمسكم، وتفيء عليه ظلالكم، وفي الريح التي تهب من ارضكم، والماء الذي ينحدر من بحركم، بل وفي العلم الذي تشتمل عليه مدارسكم، والمحور الذي تدور عليه مدنيتكم، ولقد مرت بنا أيام كنا لا نتمنى على الله فيها سوى أن نصل في المدنية إلى الذروة التي وصلتم إليها، فقد أصبحنا ولا أبغض إلينا من التشبه بكم، والتخلق بأخلاقكم، والسير على آثاركم، مخافة أن تصبح مدنيتنا في مستقبل أيامها مدنية وحشية لا عهد فيها ولا ذمام.

سنأكل الشيح والقيصوم إن عز الطعام إلاّ من أيديكم، ونلبس الجلود والفراء إن أقفرت الأرض إلاّ من مصانعكم، ونشرب الملح الأجاج إن أبى العذب الزلال أن ينبع إلاّ في أفقكم، ونعيش في الظلمة الداجية إن أبت الشمس أن تشرق إلاّ من آفاقكم، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال، ونلبسها ثوب القحط والجدب، لنقطع السبيل على مطامعكم، ونكدر عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأموالها، غير شاكين ولا متبرمين، فلا خير في نعمة يكدرها الذل، وبعداً لماء لا يشربه شاربه إلاّ ممزوجا بدم.

إن في السماء إلها، وإن في الأرض عدلا، وإن العناية الإلهية التي

---

(٤٣)ـ الدأماء: البحر.

تضم تحت أجنحتها ضعف الضعيف، وبؤس البائس، ومظلمة المظلوم، أرحم من ألا تحفل بهذه الدموع التي تذرفها الأمة حزنا على شيخها الشهيد المظلوم.

رويـدك حتى تنـظري عمّ تنجـلي غمـامـة هذا العـــارض المتـألق

٧ إلى سعد باشا في منفاه *

في الساعة التي نَزَلْتَ فيها إلى قاع السفينة «نوراليا» لتفارق هذا العالم كله إلى جزائر «سيشيل» صعد خصومك المستوزرون إلى كراسي مناصبهم فرحين متهللين يهنئ بعضهم بعضا، ويبسم بعضهم الى بعض، ولا أعلم هل تلك الحمرة الخفيفة التي جالت في وجوههم في تلك الساعة كانت خالصة كلها للسرور والغبطة، أم كان يمازجها شيء للخجل والحياء، ولعلها كانت الثانية، فأني من لا يعتقد أن الضمير الإنساني إذا جمد ينتهي به جموده الى الموت.

أنت سجين وهم مطلقون، أنت معذب وهم ناعمون، أنت مستوحش، منفرد، في قفرة جرداء، لا أنيس لك فيها ولا سمير، إلا بضعة أفراد مثلك، مستوحشين، منفردين، وهم مؤتنسون بالعيش في قصورهم وبساتينهم، وملاعبهم ومسارحهم، بين نسائهم وأولادهم، وصحبهم وخلانهم، أنت مكتئب حزين يتقاسم قلبك هَمَّان، هِمُّ نفسك، وهَمُّ قومك، وَهُمْ فرحون متهللون يطفرون ويمرحون، ويطيرون بأجنحة سرورهم وحبورهم في كل جو وأفق، لا يخالط نفوسهم همٌّ واحد.

ولكن هل أنت على ذلك شقي؟ وهل هُمُ على ذلك سعداء؟

لا، لقد كانت لهم أمنية أن تغيب عنهم فيغيب عنهم اسمك وذكرك، وضوضاؤك وجلبتك، ولكن شيئا من ذلك لم يكن، فالنفوس ثائرة، والقلوب واجدة، والهتاف باسمك يملأ الآفاق والأجواء، والدعاء بثأرك يلاحقهم في كل مكان يسيرون فيه، وعيون الحقد والبغضاء تضرب حولهم نطاقا ناريا لا سبيل لهم إلى التفلت منه، والخروج من دائرته، فأنت الحر الطليق، وهم الأسراء المسجونون، ولكنهم يتجلدون ويصابرون.

أنت تعيش من فضيلتك وشرفك، ومن رضاك عن نفسك، واغتباطك بأداء واجبك، ومن راحة ضميرك واستقراره، وهدوء نفسك وسكونها، في أرحب من رقعة الأرض، وأفسح من ديباجة السماء، وهم يعيشون من وخزات ضمائرهم، وقلق نفوسهم، ووساوس صدورهم، وخوفهم على تلك

* كتبت على اثر سفر سعد باشا من عدن الى سيشل تمهيدا لتاليف الوزارة الثروتية وتنفيذ تصريح ٢٨ فبراير (هامش الطبعة المجهولة)

اللقيمات الملفوظات، التي هي كل ما ظفروا به من حياتهم، أن تهب عليها عاصفة من العواصف فتطير بها وتطير بهم معها، ومن شبحك الهائل المخيف الذي لا يفارق مضاجعهم، ولا يبرح يقظتهم ومنامهم، ولا يزال يتمثل لهم في طعامهم الذي يطعمون، وشرابهم الذي يشربون، وفي جميع ما تمتد إليه عيونهم، وتتصل به أسماعهم، في أضيق من كفة الحابل، وأضنك من عيش السجين.

لا سجن في الدنيا غير سجن النفس، ولا حرية فيها غير حريتها، وليست سعادة المرء بمقدار ما يحيط بجسمه من الفضاء، بل بمقدار ما يحيط بنفسه منه.

فما سجنك الذي تعيش في جوه الموحش المكتئب، وبين جدرانه المتقاربة المتدانية، بمانعك من أن تطير بنفسك العالية الخفاقة في ما تشاء من الآفاق والأجواء، وان تتمتع برؤية هياكل مجدك وعظمتك المقامة لك على ضفاف النيل من طيبة الى الاسكندرية، وأن تسمع دقات القلوب الخافقة بحبك، وأحاديث النفوس الهاتفة بذكرك.

وما فضاؤهم الرحب الفسيح الذي يحيط بهم بمُجْدٍ عليهم شيئاً إذا حاولوا الحركة والاضطراب فيه، لأنهم يعلمون أنهم يعيشون في أمة قد وَتَروها وآسفوها، وغرسوا الحقد والبغضاء في صدورها، فهم على قوتهم وبأسهم، وعلى ضعفها وتجردها من كل سلاح وعدة، يخشونها ويخافونها، ولا يطيقون ان يحتملوا نظراتها النارية التي تلفح وجوههم، ولا صرخاتها الدموية التي تدوي في آذانهم، فهم دائما فارون مطاردون كأنهم بعض المجرمين، لا عمل لهم في حياتهم سوى أن يسائلوا أنفسهم أين يعيشون وكيف يعيشون؟

إنهم لم يريدوا مطاردة جسمك، بل نفسك، ونفسُك باقية في مكانها لم تبرحه، ولم يعتقلوك من أجلك، بل من أجل القضاء على الروح الوطنية من بعدك، والروح الوطنية ناميةٌ زاهرة تضرب أعراقُها في أعماق القلوب، وتهفو ذوائبها في آفاق السماء، ولم ينقموا منك حياتك ولا وجودك، بل وقوفك في وجه متعتهم بمناصبهم التي هي كيان حياتهم، وقوام أمرهم، والتي لا سبيل لهم إلى العيش إلّا في ظلالها، ولا الحياة إلّا في دائرتها، ومناصبهم منغصة مهددة هي هامة اليوم أو غداً.

فهم لم يفقدوا الا وجهك، ولم ينالوا إلا من جسمك، ولم يحصلوا في

أيديهم من كل ما عملوا إلاّ على إثم الجريمة وعارها.

آه يا سيدي لو تيسر لك أن تراهم لرأيت قوما معذبين متألمين، حائرين ذاهلين، لا يهنأون في نوم ولا يقظة، ولا يهدأون في سكون ولا حركة، قد ضاقت بهم الحيل، وتشعبت بهم السبل، وانتشرت عليهم الآراء والأفكار، لا يعلمون ماذا يأخذون وماذا يتركون، ولا عمل لهم في حياتهم سوى أن يسائلوا أنفسهم ليلهم ونهارهم ألا يستطيع هؤلاء الناس أن يرضوا منهم بدون عودتك، وعودتك موتهم الأحمر، وشقاؤهم الأكبر.

ينثرون الذهب على الناس نثرا ليتألفوهم ويستدنوهم، فيلتقطونه وهم يلعنونهم، لأنه مالهم قد سلبوه منهم ثم نثروه عليهم.

يوزعون الرتب والنياشين على الخاملين والمغمورين ليكونوا أعوانهم وأنصارهم، فيمنحونهم من ألسنتهم ووجودهم، ما لا يمنحونهم من قلوبهم وأفئدتهم، لأن الحب لا يشترى بالأسماء والألقاب.

يخلعون الوظائف الكبرى والمناصب الخطيرة على صغار الموظفين وأحداثهم ليخلبوهم ويبهروا عقولهم، فلا يصنعون لهم شيئا سوى أن يجاملوهم في مجالسهم ببعض ما يحبون، فإذا خرجوا من عندهم خرجوا هازئين بهم ساخرين.

يبتاعون أقلام فقراء الكتاب وبؤسائهم ليكتبوا لهم ما يحط من شأنك ويرفع من شأنهم، فيفعلون كارهين متبرمين، لأن القلم لا يجد لذة المراح والجولان إلاّ في ميدان الصدق والاعتقاد.

يصيحون في الناس بلهجة الخبثاء الماكرين: أبشروا أيها الناس فقد جئناكم بالاستقلال الذي هو خير لكم من سعد، فيجيبونهم بهدوء وسكون: لو كان صحيحا ما تقولون لكان سعد أول من يتمتع به لأنه صاحبه.

يحلفون لهم بالله جهد أيمانهم أنهم لا يريدون بهم إلاّ خيرا، ولا يضمرون لهم إلاّ ما يحبون، فيقولون لهم: ولماذا إذن نفيتم سعدا؟

يحاولون بكل ما يعرفون من الوسائل أن يفصلوا بين قضيتكم وقضية مصر، فكأنما يحاولون الفصل بين الشمس وشعاعها، والنار وحرارتها، والمقدمة ونتيجتها.

يصخبون أخيرا ويحتدمون ويقولون إن التشبث بعودة سعد مسئلة شخصية، فتتجاوب الأصداء من كل ناحية هبوا ان الأمر كما تقولون،

وهل تشبثكم بمناصبكم، وعضكم عليها بالنواجذ، ومخاطرتكم بكل شيء في سبيلها، مسئلة غير شخصية؟

فأنت يا مولاي قذى أعينهم، وغصة حياتهم، وشغل قلوبهم وأفئدتهم، والحجة القائمة عليهم، أحسنوا أم أساءوا، أعطو أم منعوا، نفعوا أم أضروا.

ولقد تحدثهم نفوسهم أحيانا بالتخلي عن تلك المناصب الشقية وتوديعها إلى الأبد سآمة وضجرا، وضيقا وحَصْرا، ولكن يحول بينهم وبين ذلك علمهم أن الأوان قد فات، وأن الأمة لا تغفر لهم ذنوبهم، ولا تقيل لهم عثراتهم، وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا في فضاء الأرض ذات الطول والعرض ظل حصاة يلجأون إليه من نقمة الأمة وغضبها، فلا يجدون لهم بُدًّا من أن يستمروا قابعين وراء تلك الأكمة التي تحميهم وتذود عنهم، وربما كانوا يبكون من وراءها دما.

فمثلهم كمثل الفارَّة من بيت أبيها إلى بيت خليلها، يلحقها الندم، وتضيق بها ساحة العيش، فتودّ لو رجعت إلى بيتها الأول، ولكنها لا تستطيع.

وكأنهم بسادتهم وحُماتهم وقد ملّوهُم وسئموهم، وضجروا بمكانهم، لأنهم ما منحوهم هذه المناصب حبا وإيثارا، أو مِنّة وفضلا، بل ليمهدوا لهم السبيل إلى ذلك الاتفاق الذي يريدونه، ويقوموا لهم بوظيفة تحويل شعور الأمة إلى سياستهم، واقتيادها الى حظيرتهم، من طريق الحيلة والكيد، لا من طريق القوة والعنف، وقد عجزوا عن ذلك، فلم يبق لهم سبيل إلى البقاء.

وكذلك ينتقم الله لك منهم يا مولاي انتقاما تهتز له أقطار الأرض، وتضطرب له أكناف السماء، وكذلك يسجل لهم التاريخ في صفحاته من العار والشنار ما سجل لأمثالهم من الخارجين المارقين.

مولاي!

لا الشمس الطالعة من مشرقها صفراء كالذهب تنشر الأضواء في الآفاق، وتعابث بأشعتها اللامعة المتلألئة ذوائب الأشجار، وقمم الجبال ورؤوس الهضاب، وتنبعث الأزهار من أكمامها، والطيور من أوكارها.

ولا البدر السائر في سمائه بعظمته وجلاله بين حاشية من كواكبه

ونجومه، يمسح بليقته[٤٤] الفضية جبين السماء، ويمزق حجب الظلام عن وجه الغبراء.

ولا الربيع المقبل في حلل زهوره ورياحينه، ومطارف غدرانه وجداوله، يوشي بساط الأرض بأبدع الألوان وأبهاها، ويملأ الفضاء الرحب بأطيب الروائح وأعبقها.

ولا الطيور الصادحة في أفنانها توقع نغماتها على خرير الماء، وتترجم في توقيعها عن شجو النفوس وحنينها، وخفقان القلوب وأنينها.

ولا أحلام الحياة اللذيذة المنبعثة في النفوس انبعاث الراح في الأجسام، تحيي مواتها، وتثير نشوتها، وتهز أعطافها، وتذيقها حلاوة المنى، ولذة الأمل.

ولا الدنيا وجمالها، والأرض وبهجتها، والسماء وزينتها، والبحار وروعتها، والمروج وخضرتها، والأزهار ونضرتها، بقادرة على أن تنسينا أيامك الغُرَّ البواسم التي كانت غُرَرَ الدهر وحُجُوله[٤٥]، وزينة الدنيا وبهجتها، ولا بمستطيعة أن تنزع من قلوبنا مرارة الحسرة على فراقك، واللهف إلى لقائك، فمتى يجمع الله بيننا وبينك ؟

لا أوحشت دارُك من شمسها   ولا خلا غابُك من أُسده

---

(٤٤)- الليْقة: صوفة الدواة التي تتشرب الحبر، وهي هنا بمعنى غرفة او هالة.

(٤٥)- حجول: جمع حجل، اي خلخال او قيد، ولكن المعنى الذي يقصده المنفلوطي غير هذا، فهو يعني الزينة: زينة الدهر.

٨ في أي سبيل هذا *

أفي سبيل تلك الكلمة التافهة السخيفة، كلمة «الاستقلال» التي زعمتموها والتي لا تساوي ثمن قطرة المداد التي كتبت بها، يقضي سعد باشا زعيم الأمة، ورئيس نهضتها، وفخر تاريخها الحاضر، أيامه في ذلك المنفى البعيد الموحش عليلا معذبا لا يجد بجانبه إنسانا واحدا يعلله ويعطف عليه؟

أفي هذه السبيل تَمتطي زوجُه الشيخة المريضة متن المحيط سبعة أيام تحت رحمة القضاء، وبين شِقَّي مقص الفناء، حتى تصل إليه في معتزله لعلها تستطيع إنقاذه؟

أفي سبيل أكذوبة باردة لا يصدقها طفل ولا ينخدع بها أبله يضحى بهذا الرجل العظيم هو وجميع أنصاره ورجاله ما بين منفى مهجور، وسجين مقبور، وواقف على حافة الهوة يوشك أن يتردّى فيها؟

أفي سبيل متعة طائفة من الكسالى العاجزين لا يتجاوزون المائة عدا ببعض مشتهيات كمالية لا يقتلهم فقدها، ولا يحييهم وجودها، تلبس أمة كاملة ثوب الحداد الدائم على رجالها المبعدين، وزعمائها المنفيين، وشبانها المعتقلين، وأفلاذ أكبادها المقبورين، ففي كل دار رِنة وزفير، وفي كل ساحة مناحة ومأتم!

أتعْلمن فيم تذرفدن دموعكن أيتها الأمهات الثكالى؟ وفيم تصعدن زفراتكن أيتها الزوجات البائسات؟ وفيم تختلفن صباحكن ومساءكن إلى أبواب السجون مرة وأفنية القبور أخرى أيتها الأرامل والأيامى؟

إنكن تفعلن ذلك كله في سبيل موظف يشتهي درجة أعلى من درجته، وآخر يطلب داراً أوسع من داره، وآخر يريد طعاما أدسم من طعامه، ووجيه يخشى ان يفقد نعمة البشاشة التي اعتاد ان يراها في وجه الوزير، وعين[٤٦] يخاف ان يخسر الجلسة التي يتمتع بها في حضرة المدير.

أولئك هم المعتدلون الذين لم يعتدلوا في شيء إلا في سياستهم، ولكنهم متطرفون في كل شيء من مطامعهم وشهوات نفوسهم.

---

* ـ كتبت على اثر سفر صاحبة العصمة السيدة الفاضلة حرم سعد باشا إليه في جبل طارق لتشاركه في آلامه التي كان يقاسيها هناك (هامش الطبعة المجهولة)

(٤٦) ـ عين: وجيه، من الاعيان.

في سبيـل هؤلاء الشرهـين النهمين يتألم شعب بأكمله، ويقاسي من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يطيقه بشر، فما أغلى ما بذلنا، وما أرخص ما أخذنا!

ما كانت حيـاة الامة متوقفة في يوم من أيامها على ان يتمتع هؤلاء الكسالى البلداء بما يتمتعون به، بل ما كانت متوقفة على وجودهم في قيد الحياة، ولكنها في أشد الحاجة الى بقاء زعمائها وأبطالها بين ظهرانيها، يلمون شعثها، ويجمعون شملها، ويجاهدون في سبيلها، ويحيون الآمال في نفسهـا، ويشاركونها في نعمائها وبأسائها، ويهونون عليها همومها وآلامها، ويحتضنونها الى صدورهم الطيبة الرحيمة في ساعات شدتها فتستشعر برد الراحة وسكون العزاء.

وصفت انجلترا مصر بأنها مستقلة!!!

هذا كل ما يقولون، وهذا ما يريدون ان يعزونا به عن قتلانا وجرحانا، وسجنائنا ومعتقلينا، وجميع ما بذلنا من دموع، وكابدنا من آلام، نيفا وأربعين عاما!

بَخٍ بَخٍ لهذا الوصف الجميل البديع!!!

متى كنا أيها الصغار النفوس، والضعاف العزائم والهمم، في شوق إلى الأوصـاف والنعوت، والأسماء والألقاب، ومتى تخلقنا بأخلاق النساء فنبتهـج بكلمـات الغـزل والنسيب وجمـل المـدح والثناء؟؛ ومتى ضنّ الانجليز علينا بهذه الكلمة في عهد من عهودهم الماضية والحاضرة، أو ضنّـوا بها على شعب من الشعوب التي يستعمرونها، ويملكون عليها أنفاسها، فنعدها كلمة جديدة لم نسمع بها من قبل؟ وهل كان موضوع النزاع بيننا وبينهم حروفا وكلمات، فينتهي أمره بحروف وكلمات؟ وهل بلغت بنا ضعة النفس وهوانها، وانحطاطها وإسفافها، أن ننزل عن طلب الاستقلال إلى الرضا بكلمة هي أشبه الأشياء بكلمة (الفندق) التي أمر أحد الملوك الظلمة بكتابتها على باب سجنه إرضاءً لخاطر المسجونين أو سخرية منهم!

إننا لا يكفينا أن يعترف الانجليز باستقلالنا، بل لا نطلب إليهم أن يعترفوا لنا به، لأننا لا نريد أن يكون مبنيا على اعترافهم، ولا نحب أن نعطيهم الحق في سلبه وإعطائه، وإنما نطلب إليهم أن يفارقوا أرضنا ساكتـين صامتـين لا يقـولون لنا خيرا ولا شرا، فإن فعلوا فذاك، وإلا

فموقفنا معهم موقفنا مذ نزلوا بأرضنا حتى اليوم.

أما الاكذوبة الكبرى التي لم ينطق بمثلها ناطق مذ خلق الله اسم الكذب حتى اليوم فهي قولكم إننا أخذنا منهم ولم نعطهم، وهل أعطى أحدٌ في العالم مثل ما أعطينا في مثل ما أخذنا؟

ألم نعطهم راحة نفوسهم من القلق والخوف على مستقبلهم في مصر، وراحة أسماعهم من ضوضاء المطالبة بالحقوق وجلَبتها، وراحة أمزجتهم من تكديرها برؤية أشباح الساخطين والناقمين!

ألم نعطهم أن الإدارة المصرية قد عادت لهم إلى ما كانت عليه في عهدها الأول، وأصبحت خاضعة لأمرهم في كل ما يريدون ويقترحون، ولا نعلم ماذا نقدم لهم غدا فوق ذلك؟

ألم نجمع لهم بين فوائد السلطة وثمراتها، وبراءة أيديهم من تبعاتها وآثامها، فهم يقضون في كل شيء من حيث لا يتعلق عليهم منه شيء؟

ألم نعطهم ألا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في دائرة من الدوائر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولا يوضع قانون، ولا مادة في قانون، ولا يثاب مثاب، ولا يعاقب معاقب، ولا يصادَق صديق، ولا يعادَى عدو، إلا في سبيلهم، وتنفيذا لأمرهم، ونزولا على حكمهم، وكأنهم ما أرادوا شيئا، ولا اقترحوا أمرا؟

ألم نسلم إليهم زعماءنا وعظماءنا الذين كانوا يهددون مركزهم في مصر، أو ينغصون عليهم حياتهم فيها على الأقل، ينفون منهم من أرادوا، ويسجنون من شاءوا، غير حافلين ولا مكترثين، لا يزعجهم مزعج، ولا يقلقهم مطالب؟

ألم نعطهم تمزيق شملنا، وتفريق كلمتنا، وانقسامنا على أنفسنا، وفساد كثير من أخلاقنا القومية في كثير من بيآتنا[٤٧] العليا والدنيا، ونزول بعض أشرافنا المحتشمين إلى درك الجاسوسية الدنيئة بعد أن كانت في نظرهم العار الدائم الذي لا يمحوه حتى الموت؟

هذا ما أُعطينا، أما ما أخذنا فهي تلك الحروف السبعة التي لو قدموها إلينا مكتوبة بأسلاك الذهب، ومحلاة بأحجار الياقوت والماس، لما ساوت قطرة دم واحدة من ذلك البحر الزاخر من الدماء التي قدمنا.

---

(٤٧)ـ المقصود: بيئاتنا كما نكتبها اليوم.

وهل كانوا يطلبون عندنا أكثر من تلك؟ أو يقترحون على دهرهم أمنية فوق هذه الأمنيـة؟ أو كانـوا يضنـون ببـذل مستعمـرة كاملة من مستعمراتهم للوصول إلى هذه الغاية التي وصلوا إليها؟

أنتم وحدكم أيها المعتدلون المسؤولون عن هذه الصفقة الخاسرة، فما رزئنا بما رزئنا به إلا من طريقكم، وما ذهب ما ذهب منا إلا في سبيل مطامعكم وشهواتكم.

ردوا علينـا أولادنا وإخوتنا وآباءنا وفلذات أكبادنا من ضمته منهم القبور، ومن اشتملت عليه منهم السجون، فإنهم لم يضحوا بأنفسهم حين ضحوا بها في سبيلكم، وسبيل مآربكم وشهواتكم، بل في سبيل أمتهم ووطنهم.

ردوا علينا زعماءنا وأبطالنا، وقادتنا وعظماءنا، فإننا لا نبيعهم بغير ثمن، ولا نقبل أن نلبس ثوب العار الدائم بتركهم في أيدكم.

ردوا علينا دموعنا وآلامنا، وقلقَ مضاجعنا، وتسهيد أجفاننا، وجميع مجهـوداتنا التي بذلناها أعواما طوالا حتى نزل بنا شؤمكم فأضاعها علينا، فكأننا لم نذرف دمعة واحدة، ولم ندفن قتيلا واحدا.

أعيدوا إلينا وحدتنا وجامعتنا، وتلك الأيام الحلوة الجميلة التي كنا نجتمع فيها كلنا في ميدان واحد، تحت سماء واحدة، نشترك في نعمى الحيـاة وبـؤسهـا، ونتقاسم سراءها وضراءها، ويجد كل منا في حجر صاحبـه المهادَ اللين الوثير الذي يضع رأسه عليه حين يدركه التعب، وينال منه النَصَب.

أعيدوا إلينا سمعتنا وكرامتنا، وذلك الصيت الحسن الجميل الذي كان يرنّ في آفاق الأرض رنين النغمات الموسيقية في أجواز الفضاء فيعود إلينا صداه حاملا البهجة لأرواحنا، والسرور لأفئدتنا، والعزاء الجميل عن مصايبنا وآلامنا.

لا. لا. لا تعيدوا إلينا شيئا، فاننا لم نفقد شيئا.

ما لنا ولكم ولعقودكم واتفاقاتكم، ودساتيركم ومجالسكم، ولما تأتمرون به في خلواتكم وجلواتكم، فلنا شأننا، ولكن شأنكم.

الأمة هي الأمة لا يعنيها من ينفصل عنها أو يخرج عليها، ولا يفت في عضدها أن مائة من أفرادها قد انتقلوا الى الصفوف المحاربة لها، فهي بقوة عزيمتها، وجلد نفوسها، وصبرها واحتمالها، وامتداد حبل آمالها

وأمانيها، ورسوخ إيمانها في أعماق قلبها، قادرة على أن تستقبل أعظم قوة في العالم، وتثبت في وجه كل عاصفة تهب عليها كيفما كان شأنها، فما انتصر المنتصرون يوما بقوة سلاحهم وعدتهم، بلِ بقوة يقينهم وإيمانهم، وما أغنى السلاح يوما عن أصحابه شيئًا اذا كانت النفوس خائرة متضعضعة، ولا ضرها فقدانه فتيلا إذا كانت النفوس في حصن حصين من قوة عزيمتها، وثبات عقيدتها.

سيُهدم عما قليل كل ما بنيتم، لأن الأمة لم تشترك في بنائه، وسينقض كل ما أبرمتم، لأن الأمة لا تريد إبرامه، وسيعود كل غائب إلى داره، لأن الأمة لا تتخلى عنِ أبنائها، وما كَتَبَ التاريخ في صفحاته قط أن أمة من الأمم أرادت أمراً، وأجمعت رأيها عليه، فاستطاعت يد غير يد الله أن تحول بينها وبين ما تريد.

٩ | ثم ماذا؟ *

لا أنتم قادرون على أن تنالوا ثقة الناس، ولا الناس بقادرين على أن يمنحوكم ثقتهم، وقد أظلم الفضاء بينكم وبينهم، حتى ما تستطيع الشمس الساطعة أن تمحو طبقة واحدة من طبقاته، فما بقاؤكم بعد ذلك؟

إنكم لم تقولوا للناس حين جلستم على هذه المقاعد إنكم تجلسون عليها مستبدين مستأثرين، لا تكترثون لأمة ولا شعب، ولا تحفلون بسخط ولا رضا، بل قلتم لهم إنكم تنزلون على إرادتهم، وتحكمون باسمهم، ولا تقطعون أمرا من دونهم، أي أنكم وكلاؤهم وعمالهم، تبقون ما أرادوا بقاءكم، وتنصرفون حين يريدون انصرافكم، وها أنتم أولاء ترون انهم قد ملوا بقاءكم، وسئموا العيش معكم، فلم لا تتركونهم وشأنهم يتنفسون الصعداء في جو غير جوكم، ويطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة في جوارٍ غير جواركم.

لِمَ تحرجونهم وتضيقون صدورهم وأنتم تعلمون أن النفس الانسانية إن استطاعت أن تحتمل كل شيء فإنها لا تستطيع أن تحتمل ما يثير قلقها ووسواسها على وطنها ومستقبله.

فكأن الذين يهيجونها ويستثيرونها في هذا الشأن إنما يريدون شقاءها وبلاءها، وما أحسبكم ترضون لأنفسكم بذلك.

دعوهم وشأنهم عسى الله أن يفرج عنهم كربتهم، ويكشف غماءهم، فربما كان مدخرا لهم في ضمير الغيب خير كثير لا يصل إليهم إلا من طريق غير طريقكم، فارحموهم من أنفسكم، واتخذوها يدا عند الله تؤجرون عليها في دنياكم وآخرتكم.

ليت الذين يحيطون بكم من أصدقائكم وأشياعكم يسمحون لأنفسهم بأن يَصدقوكم الحديث عن حالة الأمة اليوم، ويصوروا لكم حقيقة شعورها وإحساسها تصويرا صحيحا، لتعلموا أن نفسها تشتمل على هَمٍّ لم تشتمل على مثله في عهد من عهودها الماضية، وأن بيتا من البيوت، أو قصرا من القصور، لا يمكن أن يخلو من عين دامعة، أو نفس واجمة، أو فؤاد معذب، او قلب مقروح، وان الكآبة القاتمة قد لبست جميع الوجوه

* ـ كتبت عندما بلغت الشدة بالأمة منتهاها في اواخر عهد الوزارة الثروتية (هامش الطبعة المجهولة)

كأنما قد قام بين الناس منذر ينذرهم بالرجفة الكبرى، والنازلة العظمى، وأنهم جميعا يضجون بالدعاء الى الله تعالى أن يكشف عنهم نازلتهم، ويفرج كربتهم.

فسواء أكانوا مصيبين في اعتقادهم أم مخطئين، فالمنظر منظر مؤلم يستلين القلوب القاسية، ويستذرف الدموع الجامدة.

الحقيقة أن الأمة تخافكم على نفسها وعلى مستقبلها أشد الخوف، ويخيل إليها أن كواكب النحس قد ملأت في عهدكم أرجاء السماء فما يلوح بينها كوكب سعد واحد، وربما كانت مبالغة في ظنها، أو مغالية في رأيها، ولكن ما العمل وهذا رأيها الذي تراه، ولا سبيل لها أن ترى رأيا سواه، ألا ترون انها وقد بلغ بها الأمر هذا المبلغ قد أصبحت جديرة بعطفكم ورحمتكم، وأن تضحيتكم ببضعة مناصب في سبيل راحتها وهدوئها ليست بالشيء الكثير، ولا الخطب الكبير؟

إنها عجزت عن أن تصدق أنكم أصدقاؤها وأولياؤها وأعوانها على أمرها الذي تعالجه، بعدما رأت انكم أصدقاء عدوها وأولياؤه، وأن السياسة التي تجري على أيديكم مذ جلستم على هذه المقاعد إنما هي تنفيذ دقيق لسياسته التي وضعها، وتمهيد متين لتلك الضربة القاضية الذي يسميها اتفاقا أو محالفة، وأنه يحوطكم بعنايته ورعايته، ويذود عنكم ذودَه عن قلاعه وحصونه، وأنه ينفي ويسجن ويشرد كل من أردتم نفيه أو سجنه أو تشريده من زعماء الأمة وعظمائها، فهي تخشى أن تنتهي تلك الصلة التي بينكم وبينه إلى خرابها ودمارها، وما دمتم قد عجزتم عن أن تُدلوا إليها بعذركم في ذلك، وتوضحوا لها سر هذا الموقف الذي تقفونه، فأقيلوا أنفسكم من العمل لها لتعود لها سكينتها وراحتها.

هبوكم نعمة من نعم الله عليها، وهبوها عاجزة عن أن تخطو خطوة واحدة في سبيل حريتها واستقلالها إلا إذا كنتم زعماءها وقادتها، وهبوا السماء لا تمطرها إلا إذا استسقتها بوجوهكم، والأرض لا تثق بكم، ولا تأمن لكم، ولا ترضى أن تسير معكم في الوجهة التي تسيرون فيها، أتسيرون وحدكم؟ أم تُسيرونها على الرغم منها؟ كلا الرأيين عبث لا فائدة فيه ولا نتيجة له إلا وقوف القضية المصرية في مكانها لا تخطو إلى الأمام خطوة واحدة، وليس من الرأي ولا من المصلحة في شيء أن يتشبث القائد بمركزه، والجيش متمرد عليه، لا يطيعه ولا يذعن له، والعدو على كثب منه

يلتمس غرته في كل لحظة ليقتحمها، وأن تكون كلمته الوحيدة التي لا ينطق بكلمة سواها: «إني أعمل بضميري».

ولا أحسبكم تقولون إن الأمة هي تلك الفئة التي تشملها جدران جريدة «السياسة»[٤٨] لأنكم تعلمون أنها تلجأ إليكم دائما لحمايتها من الأمة، فلا يمكن أن تكون هي الأمة نفسها.

قد انتقلت المسألة الآن وتغير وجهها تغيرا تاما، وأصبح البحث في كفاءتكم وعدم كفاءتكم، وإخلاصكم وعدم إخلاصكم، وصحة رأيكم وفساده، وصواب برنامجكم وخطئه، عبثا لا قيمة له، إنما البحث في شيء واحد، هل الأمة حزبكم الذي تعتمدون عليه في بقائكم في مراكزكم وفي تنفيذ سياستكم التي تجرون عليها؟

تلك هي المسألة، والجواب عن ذلك: لا.

إذن فاسمحوا لنا أن نقول لكم إن الأمة أضن بوقتها من أن تنفقه في منازعتكم ومجاذبتكم فأريحوها من الاشتغال بأمثال هذه التوافه، ودعوها تشتغل بقضيتها الكبرى فهي أولى أن توجه إليها جهودها، وان تنفق فيها أوقاتها.

إنها في حاجة إلى توحيد كلمتها، ولم شعثها، وتنظيم سياستها، ووضع دستورها، وتكوين هيئتها النيابية، وإصلاح شؤونها المالية والإدارية والعلمية، ورفع منارة عالية للعدالة والحرية تشرق على الأمة جميعها من أدناها الى أقصاها، فيستوي في الاستنارة بها الغني والفقير، والقوي والضعيف، وصاحب القصر وصاحب الكوخ، والوزير الجالس في كرسي وزارته، والفلاح النائم في ظل سَرحته، ومن يمت الى القوة المسيطرة بسبب، ومن لا يمت بسبب إلا إلى الله وحده، وذلك كله موقوف على ان تكون لها حكومة تحبها وتمتزج بها، وتنزل على حكمها، وتعينها على ما هي بسبيله، وتحسن الإدلاء اليها بأعذارها وضروراتها إن اعترضتها عقبة من العقبات في طريقها.

لا بل إبقوا في مراكزكم كما أنتم، ولكن على شرط واحد، هو ألا تتعرضوا

---

(٤٨)-جريدة «السياسة» اليومية اصدرها حزب «الاحرار الدستوريون» عقب تشكيله عام ١٩٢٢، وراس تحريرها محمد حسين هيكل. وشارك في الكتابة لها عدد من الكتاب الشيوخ والشباب في تلك الفترة ممن كانت لهم صلة بحزب «الامة» واحمد لطفي السيد، مثل مصطفى عبد الرازق وتوفيق دياب وطه حسين ومحمود عزمي وابراهيم عبد القادر المازني. وتعد الجريدة وحزب الاحرار الذي اصدرها ثمرة الانشقاق في الوفد المصري.

لقضية مصر السياسية بوجه من الوجوه، ولا تشتغلوا بوضع أي أساس من أسسها، ولا تضعوا أية عقبة في طريق المشتغلين بها، أو اعلنوا إعلانا صريحا بأن المسألة المصرية مسألة حكومية محضة لا دخل للأمة فيها، ولا شأن لها بها.

نؤكد لكم أنكم لو فعلتم لما اختلف عليكم اثنان، ولا ثقل مكانكم على كائن من كان، ولا حدث نفسه محدث بازعاجكم واقلاقكم، أو مطالبتكم بترك مراكزكم.

فهل ترون بعد هذا اننا قوم شخصيون لا نبغي إلا مشاغبتكم ومناوأتكم حسدا لكم على مراكزكم وطلبا للحلول محلكم فيها؟

١٠ تحية الرئيس *

مرحبا بالبدر الطالع في جنح ليلة مدلهمة ضل بها الساري لا يعلم أي طريق يسلك، ولا أي مذهب يذهب، حتى أشرف عليه من سمائه فسجد لله حمدا وشكرا.

مرحبا بالنبع الصافي ظفر به الظامىء الهيمان بعد مسير أيام طوال في صحراء محرقة لا يرى لامعا في أرضها غير السراب، ولا بارقا في سمائها غير الشعاع، فأقبل عليه يرشف من زلاله العذب حتى هدأ غليله، وبردت جوانحه.

مرحبا بالمزنة الهاطلة أصابت تربة قاحلة طال عهدها بالري والحياة، فما هو إلا أن جرى الماء في عروقها، وتغلغل في صميمها، حتى اهتزت وربت، واستحالت من قفرة جدباء، إلى روضة خضراء.

مرحبا بقميص يوسف تلقاه يعقوب بعدما ابيضت عيناه من الحزن، وأظلم الفضاء بينه وبين الحياة، فانتعشت نفسه، وأضاءت روحه، وارتد بصيرا.

مرحبا بالأب القادم على بنيه من غيبة منقطعة دارت عليهم فيها النحوس، وتداولتهم البؤوس، فلما لاح لهم سواده طاروا إليه فرحين مستبشرين، وأنشأوا يضمونه إلى صدورهم، ويذرفون بين يديه دموع الغبطة والسرور.

مرحبا بالرجاء بعد اليأس، والفرج بعد الشدة، والأنس بعد الوحشة، واليسر بعد العسر، والفكاك بعد الأسر، والابلال بعد الإشفاء، والراحة بعد الإعياء، والرحمة العامة التي يفيء إلى ظلها الضاحون، والنعمة الشاملة التي يتقلب في أعطافها المجدودون.

مرحبا بالأمة في رجل، والعالم في واحد، والبطل الذي تمر به الحوادث الجسام التي تطير بألباب الرجال فيثبت ثبات الصخرة الصماء، في وجه الرياح الهوجاء، لا يشكو ولا يتبرم، ولا يجزع ولا يتألم، كأن المعنى بذلك كله سواه، والمجاهد المخاطر الذي يصمم فيقدم فلا ينثني حتى الموت، كأن الموت مأربه الذي يحتذيه، والمخلص الوفي الذي لو عرضت عليه

---

* كتبت يوم رجوع سعد باشا من منفاه (هامش الطبعة المجهولة)

الدنيا بحذافيرها على أن يبذل فيها ذرة واحدة من تراب وطنه، وقلامة ظفر من أظفار أحد مواطنيه ما فعل.

ما هذه النضرة التي تجـول في جميـع الوجوه، وما هذه الهزة التي تتمشى في جميع الأعطاف، وما لهذا الطفل الصغير يستطير فرحا وسرورا كأنما بشره مُبَشر بطلعة العيد، وما لهذا الشيخ الهرم يهرع في مشيته، وينشط في لفتته، كأنما قد لبس برد الشباب مرة أخرى، وما لهذه العجوز الفانية القابعة في كسر بيتها يخفق قلبها بين جوانحها خفقان السرور والغبطة كأنما قد مرت بخاطرها لمحة من ذكريات الصبا، ولِمَ تضطرب الآفاق بالأعلام، وتتلألأ الأجواء بالأضواء، كأنما قد هبط الملأ الأعلى الى حرم الأرض بنجومه وكواكبه، وأشعته وأضوائه، ولم يموج الشاطئان من الاسكندرية إلى أصوان[٤٩] بالجموع الفرحة الطربة، الراقصة الشادية، كأنما قد فتحت لهم أبواب الجنان، وقيل أدخلوها بسلام.

لا عيد هناك ولا موسم، ولا فراديس ولا جنان، ولكنها أمة طيبة، كريمة خرجت لتشكر للمنعم عليها نعمته التي أسداها إليها، ولتسرِّي عن نفسه بودها وعطفها آلامه التي كابدها في سبيها، وربما أضمرت في نفسها فوق ذلك أن تعتذر إليه عن تلك الذنوب التي جناها عليه بعض أفرادها، وقد علمت أنه محسن كريم، وأنه فوق أن يأخذ أمة بجريرة فرد، بل فوق أن يأخذ ذلك الفرد بجريرة نفسه.

خرجت لتشكـر له أنها كانت ممزقة الأديم أناسا وألوانا، ومذاهب وأديـانا، فجمع شملها، ووحد كلمتها، ووقَفَها جميعها في موقف واحد، تحت راية واحدة، هي راية «المصرية» فأصبحت أمة واحدة.

وأنها كانت ضعيفة عاجزة تهمس بمطالبها همسا فصاح بينها صيحة عاليـة، فصـاحت بصياحه، فاخترق صوتها مسمع الخافقين، فالتفت العالم قائلا: إن في تلك الزاوية الشرقية من تلك القارة السوداء حادثا جديدا.

وأنها كانت ممنوّة[٥٠] بفئة من المنحرفين المارقين يفتون في عضدها، ويعينـون عليها، فزمهر[٥١] في وجوههم، وكشر لهم عن مثل ناب الليث،

---

(٤٩)- اسوان، كما نكتبها اليوم، المدينة المعروفة في اقصى صعيد مصر.

(٥٠)- ممنوة: مبتلاة، من الفعل: مَنَا اي ابتَلى.

(٥١)- زمهر: اشتد غضبه.

فارتـدوا الى أفـاحيصـهم[٥٢] ولم يستطيعوا الخروج منها بعد ذلك إلا متسللين مُخافتين، وإلا بعد أن تنكروا في رداء غير ردائهم، واتخذوا لهم عنوانا غير عنوانهم.

وأنها كانت تعيش تحت سيطرة حكومة لا تقيم لها وزنا، ولا تقدر لها قدرا، فلم يزل يطير بهـا في سماء العزة والكرامة حتى أصبحت تعيش بجانب حكومة لا سبيل لها إلا أن تنزل على إرادتها، أو تنزل عن مقاعدها.

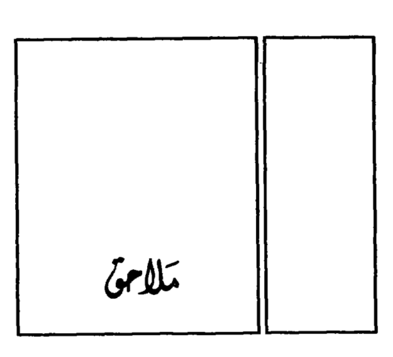
وأن كتاب تاريخها الحديث كان خلوا إلا قليلا من العظائم التي تُدِلُّ بها الأمم وتساجل بها أقرانها، فسجل لها فيه من المفاخر في ثلاثة أعوام ما لم يسجل لها منذ ثلاثين قرنا.

وتشكـر له فوق ذلك أنهـا استطاعت بما بعث في نفسها من العزة والكرامة، والشرف والإباء، أن تنتزعه من بين مخالب أعدائه الأقوياء، فمحت بذلك صحيفة سوداء في تاريخ حياتها لو بقيت لكانت عارها الدائم وسُبتها الخالدة.

---

(٥٢)ـ الفاحيص: جحور او مخابيء.

إنا نحييك يا مولاي فنحيي فيك الشرف والنبل، والهمة والشجاعة، والصبــر والجلد، والاخــلاص والوفــاء، والتضحيــة الشريفــة، والألم الصامت، ونحيي فيك مصر القديمة لأنك ولدها النجيب، ووارث صفاتها ومزاياها، ومصر الحديثة لأنك واضع أساسها، وغارس غرسها، ونحيي معـك تلك السيـدة العـظيمــة المجـاهـدة الصابرة شريكتك في نعمائك وبــأســائك، ومعينتك على همومك وآلامك، ونستقبلكما استقبال النبتة الذاوية، للقطرة الصافية، والزهرة الذابلة، للشمس الطالعة، ونقدم لكما تحيــة لقـدومكمـا قلوبَنا التي لا تحمل إلا حبكما، ولا تشتمل إلا على الإخلاص لكما.


ملاحق

كلمات المنفلوطي*

إن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله.

* * *

ما دخلت الفلسفة أيا كانٍ نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته. وما خالط التكلف عملاً من أعمال الذوق إلا شوه وجهه وذهب بحسنه وروائه.

* * *

الشح خلُق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارسا يقظا على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة، حتى لا يجد فيه واجد مصطنعا، ولا يظفر منه معتصر ببلّة، فيضن بعلمه كما يضن بماله، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق، ويصرِّد[٥٣] عطاءه تصريدا ليستديم به حاجة الناس اليه كما يجيع كلبه ليتبعه.

* * *

أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويرا صحيحا، كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضا، أابكاريوسابكاريوسو يضعه في أيديهم وضعا.

---

* الكلمات التالية خلت في الأصل من الهوامش، ولكننا سنضيفها كلما دعت الحاجة الى شرح كلمة أو موقف (المحقق)

(٥٣)- يصرد: يقلل، ومعناها الاصلي: يبرد.

الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر، أو يحدث نفسه به، أو يكون عونا لفاعليه عليه. فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض[٥٤] ما ينغِّصُ عليه عيشه، ويقلق مضجعه، ويطيل سهده وألمه.

* * *

البيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوقٍ الى سوق، ومن حانوت الى آخر. ولكنه حركة من حركات النفس الطبيعية التي تصدر عنها عفوا بلا تكلف ولا تعمل، صدور النور عن الشمس، والصدى عن الصوت، والأريج عن الزهر، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب إشراق المصباح في زجاجته. وينبوع ثَرَّار يتفجر في صدره ثم يفيض على أسلات[٥٥] قلمه. وهو أمرٌ وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود.

* * *

الفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون، والآخرين مصححون. فمثلهما كمثل النساج وعامله: هذا ينسج الثوب، وهذا يلتقط زوائده ويمسح عنه زئبره[٥٦]. أو كمثل الشاعر والعروضيّ: هذا ينظم الشعر، وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه.

* * *

ليس البيان ذَهاب كلمة أو مجيء أخرى، ولا دخول حرف أو خروج آخر، وإنما هو النظم والنسق والإنسجام، والإطراد والماء، والرونق، واستقامة الغرض، وتطبيق المفصل، والأخذ بالنفوس، وامتلاك أزمة الهواء. فإن صح ذلك لأمرىء فهو الكاتب القدير، أو الشاعر الجليل.

* * *

التربية العلمية كالتربية الجسمية. فكما أن الطفل لا ينمو جسمه، ولا ينشط ولا تتبسط أعضاؤه، ولا تنتشر القوة في أعصابه، إلا إذا نشأ في لهوه ولعبه، وقفزه ووثبه، كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه،

---

(٥٤)ـ الارتماض: الاحتراق او الشعور بالحرارة.

(٥٥)ـ اسلات: جمع اسَلَة، اي العود الذي لا عوج فيه، او طرف الشيء الحاد مثل السكين والنصل واللسان والقلم.

(٥٦)ـ الزئبر: الزوائد او النتف الزائدة.

ولا تأخذ مكانها من نفسه، ألا إذا ملك الحرية في التصرف والافتتان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث شاء، دون أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته.

* * *

ليس إجماع واحد أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين قوة واحدة على رأي من الآراء دليلا على صحة ذلك الرأي لأنه رأى فرد واحد تأثر به الباقي تقليدا وعدوى. ورأى الواحد مترجح بين الخطأ والصواب.

* * *

الإحسان إيصال الخير. والإساءة إيصال الشر.

* * *

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها، ونظر إليها نظر المستريب وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها فإن بقيت في يده فذاك وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل. لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت. ولولا الوثوق بدوام الغني ما كان الجزع من الفقر. ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق.

* * *

إن الرحمة كلمة صغيرة، ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها والشمس في حقيقتها.

* * *

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع، ولا عار، ولا مغبون، ولا مهضوم، ولأقفرت الجفون من المدامع، واطمأنت الجنوب في المضاجع، ولَمَحَت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

* * *

إن من الناس من يؤذي الناس، لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة، بل لأنه شرير يدفعه طبعه الى ما لا يعرف وجهه، أو ليضري نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه. حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مَدَبَّ عقاربه وغرض سهامه.

* * *

الصدق جنة حُفَّت بالمكاره. فإن كان للصادق في جنة الصدق أَرَبُ فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الانساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية.

* * *

لا سبيل الى السعادة في هذه الحياة إلا إذا عاش الانسان فيها حرًّا لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس.

* * *

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس. فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر.

* * *

إن حياة النبي صلى الله عليه وسلم أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق والتحلي بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والإخلاص في العمل، والثبات على الرأي وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سببا في علوه على الباطل.

* * *

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممن يُغْتَبَط بمودته، أو يوثق بصداقته، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك وتصدقك عن زينك وشَيْنِك[٥٧]، وحلوك ومرّك.

* * *

إن ديناً خرافياً خير من لا دين.

* * *

ما العالم إلا بحر زاخر. وما الناس إلا أسماكه المائجة فيه. وما ريَبُ المنون إلا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسكَ ما تمسك، وتترك ما تترك. وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو غدا.

* * *

(٥٧)ـ الشين: العيب او القبح.

إن الانسان سعيد بفطرته وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء الى نفسه. يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطمعه فيطول بكاؤه وعناؤه، ويعتقد أن بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه. فإذا أخطأ سهمه، والتوى عليه غرضه أنَّ، وشكا شكاة المظلوم من الظالم. ويبالغ في حسن ظنه بالأيام، فإذا غدرت به في محبوب لديه من مال أو ولد فجأة من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر وقتل الأيام علماً وتجربة، وعرف أن جميع ما في يد الانسان عاريةً مستردة، ووديعة موقوتة. وان هذا الامتلاك الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة.

* * *

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات، وفي الحقائق أم الخيالات.

* * *

ليس الكذب شيئا يستهان به فهو أسُّ الشرور، ورذيلة الرذائل. فكأنه أصل، والرذائل فروع له. بل هو الرذائل نفسها.

* * *

لا شرف إلا الشرف الحقيقي وهو الذي يناله الانسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه او خدمة نوع من أنواعه.

* * *

إن الضجر والسآمة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الانساني، فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد او عشير واحد.

* * *

المنظر المتكرر لا يلفت النظر، ولا يشغل الذهن، حتى إن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها. وكان أحرى أن يوقظه دورانها.

* * *

إن حياة المدمنين[٥٨] حياة متشابهة متماثلة لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها. ذهاب الى الحانات فشراب، فخمار فنوم فذهاب كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها.

---

(٥٨)ـ المقصود مدمنو الشراب.

الصـداقة ينمو بالمودة غرسها، ويمتد ظلها. أما الحب فظل يتنقل، وحال يتحول.

* * *

إن الدين الاسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها. ولا ترك الانسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحده إلَّا مدّ يده إليه وأنار له مواقع أقدامه وأرشده الى سواء السبيل.

* * *

المرأة الشرقية من حيث ذاتها صديقة الزوج، وخادمته، والمخلصة إليه، والوفية بعهده، والمنقطعة عن كل شيء سواه. إن تعبت ففي قضاء حاجته، أو تجملت بالملابس فلأجله، أو ابتسمت فلادخال السرور على نفسه، أو بكت لحزنها عليه، أو جزعت فلملمَّة ألَمّت به.

* * *

الإحسان شيء جميل. وأجمل منه ان يحل محله، ويصيب موضعه.

* * *

الإحسـان عاطفـة كريمـة من عواطف النفس، نتألم لمناظر البؤس ومصـارع الشقـاء. فلو أنَّ جميـع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحسانا صادر عن تلك العاطفة الشريفة لما تجاوز محله، ولا فارق موضعه.

* * *

يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه، ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من أجله.

* * *

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الانسان كبقية الشهوات فيعذر في الإنقياد إليها كما يعذر في الانقياد الى غيرها من الشهوات الغريزية، فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى، فَلَمَ يتناولها.

* * *

إن وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سُنَّة من سنن الكون التي لا يمكن تحويلها ولا تبديلها حتى لو لم يبق على ظهر الارض إلا رجلٌ واحـد لجرد من نفسه رجلا آخر يخاصمه وينازعه. ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة.

إن النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه، وبغض الخير للناس قاطبة.

* * *

إن كثيرا من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه، لا لفائدة يرجونها أو خير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال. وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإخلاص والإجلال والإعظام، وإن لم يحصلوا منه على طائل.

* * *

من العجز أن يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزنا، وأن ينظر الى من فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم الى الحيوان الناطق. وعندي أن مَن يخطىء في تقدير قيمته مستعليا خَيرٌ ممَّن يخطىء في تقديرها متدليا. فإن الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أحواله وأطواره إلا ما شاكل منزلتها عنده. فتراه صغيرا في علمه، صغيرا في أدبه، صغيرا في مروءته وهمته، صغيرا في ميوله وأهوائه، صغيرا في جميع شؤونه وأعماله، فإن عظمت نفسه عظم في جانبها كل ما كان صغيرا في جانب النفس الصغيرة.

* * *

كثيرا ما يخطىء الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس، وبين الكبر وعلو الهمة، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعا، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنيا وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الانساني متكبرا. وما التواضع إلا الأدب، ولا الكِبر إلا سوء الأدب.

* * *

لا يضن الانسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات. وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه. وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في مواقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم إلا حماية للمذاهب وذَوْداً عن العقائد.

* * *

الجهل غشاء سميك يغشي العقل. والعلم نارٌ متأججة تُلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويدا رويدا. فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار

نورا، والألم لذة وسرورا.

* * *

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان، لأن الحق وجودٌ والباطل عدم. وإنما يصرعه جهل العلماء بقوته، ويأسهم من غلبته وإغفالهم النداء به، والدعاء إليه.

* * *

لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد وأولئك يقتلون الأمم.

* * *

لا مجد إلا مجد العلم. ولا شرف إلا شرف التقوى. ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الانسانية البائسة رحمة بها وحنانا عليها.

أولئك هم الأمجاد. وأولئك الذين يفخر الفاخرون بالاتصال بهم والانتماء اليهم، وأولئك هم المفلحون.

* * *

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس. والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة الدنيا مقنع، ولا تقف به نفسه عند مطمع.

* * *

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتا لا حياة لها من بعده الى يوم يبعثون.

* * *

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان فأبرزتها الألحان. فهو أفصح الناطقين لسانا، وأوسعهم بيانا، وأسرعهم نفاذا الى القلوب، وامتزاجا بالنفوس، واستيلاء على العقول، وأخذا بمجامع الأفئدة.

* * *

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخبرها في فؤاد الحاسد ثم خالسه نظرة خفية فحيث ترك الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها.

* * *

الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة. ولكل داء دواء. ودواء

الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها، ولا أحسب أنه ينفق من وقته وعمله في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك في الغض من شأن محسوده والنيل منه. فإن كان يحسده على المال فلينظر أي طريق سلك إليه فليسلكه. وإن كان يحسده على العلم فليتعلم، أو الأدب فليتأدب، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ عمره بشؤون لولاها لقضاه بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل.

* * *

إن عجزا من الرجل وضعفا أن يغضب فيمد يده بالعقوبة الى غير من أذنب اليه، ويعتدي على من لم يعتدِ عليه.

* * *

ما من لذة يلذ بها الإنسان في حياته الا ويشوبها الكدر أو يعقبها الألم، إلا لذة الإحسان.

* * *

التمسك محافظة المرء على العمل بأوامر الدين ونواهيه. والتعصب بغضه لمخالفيه في دينه بغضا يحمله على محاولة النكاية بهم والعبث بما حقن الله من دمائهم وصان من أعراضهم وأموالهم.

* * *

التهاون ترك العمل بما فرض الدين عليه أن يفعل أو يترك. والتسامح إغضاؤه عن خُلف المخالفين له بحيث لا يعد تلك الفروق الدينية التي بينه وبينهم وسيلة الى بغضهم أو مناضلتهم، أو نصب الغوائل لهم، أو سدّ سبل العيش في وجوههم.

* * *

الغضب لا يزال رذيلة الرذائل حتى يكون للحق فهو أفضل الفضائل.

* * *

الكريم معان على أمره، مبارك له في عيشه متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه الى تفقد الضعفاء، ومؤاساة الفقراء، من حيث لا يبتغي على ذلك أجرا سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر ورفع الذكر في الآخرة والأولى.

* * *

الحب شجرة يغرسها الأمل في القلب، ثم يغذوها بمائه وهوائه، فلا تزال تشتجر أغصانها، وترف ظلالها وترن أطيارها، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت.

* * *

إن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء، وأنواع الآلام، والتي لا يُفيق المرء فيها من غمرة إلا الى غمرة، ولا يئل من عثرة إلا الى عثرة، لا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، وتداركت عثراته، ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

إن الله وحده هو الذي يستطيع أن يغير طبيعة الإنسان.

* * *

أكثر الناس يعيشون في أنفس الناس أكثر مما يعيشون في أنفسهم أي إنهم لا يتحركون ولا يسكنون، ولا يأخذون ولا يدعون، إلا لأن الناس هكذا يريدون.

* * *

المنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الفكر.

* * *

العقل قوة يقتدر بها المرء على الاستمساك في مزالق الشهوات وبين مهاب الأهواء.

* * *

لا سعادة في هذه الحياة إلا إذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري. ولن ينتشر السلام إلا إذا هدأت أطماع النفوس واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف فعرف كل ذي حق حقه، وقنع كلٌ بما في يده عما في يد غيره.

* * *

أيها العظماء. ليست العظمة التي تعرفونها لأنفسكم إلا منحة من منح الفقراء عليكم وحسنة من حسناتهم إليكم فلولا تواضعهم بين أيديكم لما علوتم، ولولا تصاغرهم في حضراتكم لما استكبرتم، فلا تجزوهم بالإحسان سوءا ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر تستدفعوا النقم، وتستديموا النعم.

أيها العظماء، لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم. فإن كنتم من أرباب الفضائل فحري بالفاضل أن لا يشوّه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء أولا. فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجها ولا أصلب خدا من جهلة المتكبرين. فانظروا أين تنزلون، وفي أي مقام تقيمون.

* * *

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخور، وما يصل إليه العقل من العزم، أو في عقله من الاضطراب والهوس. وأحسب ألا يقدم الانسان على الانتحار وفي نفسه ذرة من العزم، أو في عقله لمحة من الحزم.

* * *

ما سمي القاتل مجرما إلا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد. وأقسى منه قاتل نفسه لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول فهو أجرم المجرمين وأفظع القاتلين.

* * *

الأمل هو السدُّ المنيع الذي يعترض في سبيل اليأس ويقف دونه أن يتسرب الى القلوب. ولو تسرب إليها لزهد الناس العيش في هذه الحياة الحسية التي لا قيمة لها في أنظارهم ولا لذة لها في نفوسهم ولطلبوا الفرار منها الى الموت تسليا بالتغير والانتقال، وتلذذا بالتحول من حال الى حال.

* * *

لن تستقر ملكة البيان في النفس حتى يقف المتأدب بطائفة من شريف القول منظومة ومنثورة وقوف المستثبت المستبصر الذي يرى المعنى بعيدا فيمشي إليه أو نازحا فيستدنيه، أو محلقا فيصعد إليه، أو متغلغلا فيمشي في أحشائه، حتى يصيب لبه. ولا يزال يعالج ذلك علاجا شديدا ينضح له جبينه وتنبهر له انفاسه حتى تتكيف ملكته بالكيفية التي يريدها.

* * *

كل كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارىء وجد في نفسه الأثر الذي أراده الكاتب منه من حيث لا يجد فيه مسحة تدل على أن صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغا فهو بليغ.

* * *

الوطنية لا تزال عملا من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الانسانية. فإذا هي خيالات باطلة وأوهام كاذبة. والدين لا يزال

غريـزة من الغـرائز المؤثرة في صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الانسانية ويعتزلها. فإذا هو شعبة من شعب الجنون.

* * *

أنا لا أغبط الغنيَّ على غناه الا في موطن واحد من مواطنه. فأغبطه إن رأيته يشبع الجائع ويؤاسي الفقير، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون. ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى.

* * *

أما الفقير فهو عندي أسعد الناس عيشا وأروحهم بالا إلا إذا كان جاهلا ضعيفا، فإني أراه وقد ملك الوهم عليه مشاعره فظن أن الغني أسعد منه حظا وأرغد عيشا وأثلج صدرا فحسده على تلك السعادة التي يزعمهـا له فجلس في كسر بيتـه جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة ويرسل الدمعة إثر الدمعة. ولولا جهله وضعف قلبه لعلم أن رُبَّ قصر يتمنى صاحبه كوخ الفقير وعيشه.

* * *

لو أن القلب فَلْذَة من الحديد أو قطعة من الصخر لاستطاعت العزيمة التي تحيل الحديد ماء والصخر ترابا أن تنال منه فتحيل قسوته رحمة، وصلابته لينا متى أراد صاحبه أن تكون كذلك.

* * *

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذائذ ومسرات يدركها من عرف أن الانسان بطبيعته غافل عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها وإن الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة نُذُرٌ تأتيه من عالم الغيب لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة.

* * *

من لا خير له في دينه لا خير له وطنه، لأنه إن كان بنقضه عهد الوطنية غادرا فاجـرا فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أعذر وأفجر. وإن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان. فمن لم يحرص عليها فأحر بِه ألا يحرص على وطن السقوف والجدران.

* * *

إذا توردك متورّد بكلمة سوء فلا تبتئس بها فإنك في موقفك هذا بين اثنين: إما أن يكون الرجل صادقا فيما يقول أو كاذبا. فإن كانت الأولى فاحمد الله تعالى على أن قيض لك من أرشدك الى عيبك، وكشف لك عن خبيئة نفسك من حيث لا يكلفك في هذا العمل مؤونة ولا يسألك عليه أجرا.

* * *

لا تكافىء السفيه على سفهه بمثله. فإنك إن فعلت قضيت له على نفسك وأصبحت شريكه في الخُلَّة التي تزعم أنك تنقمها عليه. فإن كنت لا بد منتقما فليكن مثلك مثل الأحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جُعلا على أن يغضبه فما زال يسبه ويلح في ذلك إلحاحا محرجا والأحنف ساكت لا يقول شيئا، حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب الى قومه باكيا نادبا يأكل إصبعه أكلا، ويقول: والله ما سكت عني إلا لهواني عليه.

* * *

مَثَلُ المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر، قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تعترض الرائح وتصد سبيل الغادي فلا الناس بظلها يستظلون، ولا هم من شرها ناجون.

* * *

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام. وبين البخل والإسراف منزلة هي الكرم. وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة. وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة. فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفروق بين مشتبه الفضائل والرذائل. وإعلم أنك لا تزال كريما حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا أنت مسرف. وإنك لا تزال حليما حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهول. وإنك لا تزال جبانا حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فإذا أنت شجاع. وإن كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها. أما إدراك الفروق بين مشتبهاتها عند ملابستها فتلك رتبة العقلاء الأذكياء.

* * *

ربما كان لك من أبويك أو من ذوي رحمك ممن تولوا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره أو عصور نشأته على أن ينال حظا من

العلم والمعرفة مثل ما نلت فإياك أن يدعوك ذلك الى تسفيهه أو تجبيهه أو السخرية به أو الادلال بنفسك عليه فإنك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم. على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذي عققته وظلمتــه وكفـرت بفضل نعمته عليك من العلم بتجارب الحياة ومقاتلها وموارد الأمور ومصادرها ما يبهر علمك الذي تعتمد به وتدل بمكانه عليه، وهنالك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقا بك أن تتلقاه بين يديــه من علوم التجارب التي ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر والمَدْرَة[٥٩] من القفر.

* * *

السبب في شقاء الإنسان أنه دائما يزهد في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده. فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيرا من يومه فهو لا ينفك شقياً في حاضره وماضيه.

* * *

إن استطعت ان تقف الشمس في كبد السماء، وأن تحول بين الأرض ودور انهــا، وأن تمنع الساكن أن يتحرك والمتحرك أن يسكن فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها.

* * *

البيان هو تصوير المعنى القائم في النفس تصويرا صادقا يمثله في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئا، فإن عجز الشاعر أو الكاتب مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه عن أن يصل بسامعه الى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء أو أفضل الفضلاء أو أذكى الأذكياء ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

* * *

الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون بأداء حقه والقيام على خدمتــه إخـلاص المشتغلين ببقيــة الفنون لفنونهم. والأدباء هم قادة الجمـاهـير وزعماؤهم فلا يجمل بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالاتهم وفساد تصوراتهم.

* * *

٥٩ـ المدرة: القطعة من الطين.

ظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل.

* * *

لا سبيل الى الرجولة إلا من ناحية العمل. وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة ودافع من الحاجة.

* * *

الألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنسانية، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه. بل هو معنى الانسان وروحها وجوهرها. فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس وكل مكرمة من مكرماتها وأصبح بالصخرة الصلدة الصماء أشبه منه بالانسان الناطق.

* * *

ما السعادة في الدنيا الا لمحات كلمحات البرق تخفق حينا بعد حين في ظلمات الشقاء فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها.

* * *

أكثر الناس فقرا الى المال، وأشدهم طمعا في إحرازه، وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء أصحاب المال والثراء. وإن كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالا فهو في جانب الفقراء المقلين أكثر منه في جانب الأغنياء المكثرين.

* * *

إن عشرات الأغنياء متملقون مداهنون يُطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم.

* * *

إن للرحمة طيشا كطيش القسوة والشدة. وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائبا ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم، ضنا بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأثقالها.

* * *

لكل نفس همومها وآلامها. وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها.

* * *

إن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلاَّ في مواقف المفاخرة والمكاثرة، والتي لا تفهم معنى الإحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلبا رحيما.

* * *

إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها، ويحمل أعباءها على عاتقه الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها، فيقوم لها بكل ما تريد ويسعى لها سعي الكادح المجد، ويرحم صغيرها، ويحنو على كبيرها، ويحتمل مغارمها، ويغتفر عبث أطفالها وجهل شيوخها، ويرى لها في كل شأن من شؤونها خيرا مما ترى لنفسها، أرضاها ذلك أم أغضبها من حيث لا يمكن عليها بذلك، ولا يطلب عندها جزاء ولا أجرا، بل من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه من آلام الحياة وما يعالج من شدائدها في سبيلها.

* * *

العظمة أمر وراء العلم والشعر والإمارة والوزارة والثروة والجاه. فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون والعظماء منهم قليلون.

* * *

إن أحدا من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب وعقول المفكرين وألسنة الناطقين وقلوب المحبين والمبغضين إلا الرجل العظيم.

* * *

عظماء الرجال أطول الناس أعمارا وإن قصرت حياتهم، وأعظمهم حظا في الوجود وإن قلت على ظهر الارض أيامهم.

* * *

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل أحجار هيكلها على رؤوسهم هادموها وبُناتها.

* * *

كن زعيم الناس إن استطعت. فإن عجزت فكن زعيم نفسك.

* * *

لا يتبرم بالنقد ولا يضيق به ذرعا إلا الغبي الأبله الذي لا يبالي أن يفهم الناس سيئاته بينهم وبين أنفسهم، ويزعجه كل الإزعاج أن

يتحدثوا بها في مجامعهم ولا فرق بين فهمهم إياها وحديثهم عنها، أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم ويَفْرَقُ من رؤية الإشباح.

* * *

نحب حرية المرأة ولكننا نكره فسقها وفجورها. ونأخذ مواد المدنية والرقي من الأمم المتمدنة، ولكننا لا نقلدها. ونحب أدب الغربيين وعلمهم ونعجب بأدبائهم وعلمائهم، ولكننا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا.

* * *

لا تطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التي يخطها التاريخ في صفحاته.

* * *

الدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون والمحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الأرض أو في شعب من شعاب السماء ناصرا ولا معينا.

* * *

مجد الكرم ليس بأقل شأنا من مجد السيف والقلم.

* * *

الكريم معان على أمره مبارك له في عيشه متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه، تسوقه الى تفقد الضعفاء ومؤاساة الفقراء، من حيث لا يبتغي على ذلك أجرا سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر ورفع الذكر في الآخرة والأولى.

* * *

ما أنعم الله على عبده نعمة أسنى قيمة ولا أغلى جوهرا ولا أحسن أثرا من نعمة الاعتقاد بالجزاء الصالح على العمل الطيب. فهو يعتقد أنه مجزي على عمله مكافأ به مؤمنا كان أو ملحدا معترفا بنعيم الآخرة أو منكرا له.

* * *

إن هذه الاحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهابا لا تؤججها في صدورهم الأديان نفسها بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل.

الكاتب كالمصور كلاهما ناقل وكلاهما حاك إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس الى النفس والثاني ينقل مشاهد الحس الى الحس. وكما أن ميزان الفضـل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد، كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس خيال المكنون في النفس.

* * *

لا يستطيع الرجل أن يكون رجلا تام الرجولة حتى يجد الى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشهامة والهمة وتغرس في قلبه كبرياء المسؤولية وعظمتها.

* * *

يجب أن نحترم المرأة لتتعود احترام نفسها. ومن احترم نفسه فهو أبعد الناس عن الزلات والسقطات.

* * *

لا يمكن أن تكون العبودية مصدرا للفضيلة ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدرا للنور والموت علة في الحياة والعدم سُلَّما الى الوجود.

* * *

ليس بين الأحاديث حديث أَسْيَرَ ولا أذيَعَ من حديث السوء.

* * *

إن الانتقام لذيذ جدا ـ كما يقولون ـ ولكنه اللذة التي يعقبها الندم والأسف، وتأتي على أثرها الحسرات والآلام.

* * *

ما البيـان إلا المـرآة التي ترتسم فيها صورة النفس فحيث تكون النفس جميلة فهو جميل، أو قبيحة فهو قبيح، أو مضيئة فهو مضيء، أو مظلمة فهو مظلم، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها استطعنا أن نتصور بيانا يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه.

* * *

إذا سمعت بيتا من الشعر فأطربك، أو أقنعك، أو أرضاك، أو هاجك، وأنت ساكن، أو هدَّأ روعك وأنت ثائر، أو ترك ي ثر من الآثار في نفسك

كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في نفس سامعها، فاعلم أنه من بيوت المعاني وأن هذا الذي تركه في نفسك من الأثر هو روحه ومعناه.

* * *

يجب أن لا ينفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن ينفتح لزوجها لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا ينغصها ذكر الماضي ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان.

* * *

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحا وللاسلام صلاحا فليبدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية وتربية النشء الحديث تربية إسلامية لا تربية مادية. أي أنهم يدخلون الى الاصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدِّب والمعلم والمهذب.

* * *

أقرب ما تكون النفوس الى النفوس إذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها.

* * *

لا يستطيع الانسان أن يبلغ منزلة الوفاء إلا إذا لقي في هذا السبيل شقاء كثيرا وعذابا اليما.

* * *

لو علمت المرأة أن ساعات السرور التي تقضيها مع عشيقها ستنقلب في مستقبل الأيام أعوام حزن عليها وعلى عشيرتها لما سئمت الوحدة في مضجعها ولا استوحشت لانفرادها في غرفتها ولا لَذَّ لها أن تطلب هذا الأنس الكاذب والسرور الموهوم.

* * *

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يُلْبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة، وهو يحسب أنه يمشي في طريق الفضيلة، أو خوفه من القانون لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس لأن الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يَضُرُّ بهم رذائل كان أم فضائل. وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو

قائده الذي يهتدي به ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته.

* * *

الخُلق هو الدمعة التي تترقرق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس أو مشهد من مشاهد الشقاء. هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه ردَّ سائلا محتاجا أو أساء الى ضعيف مسكين.

هو الحمرة التي تلبس وجه الحيي خجلا من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده ولا يستطيع مدّ يد المعونة اليه.

هو اللجلجة التي تعتري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورة من ضرورات الحياة.

هو الشرر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الأيدي الى العبث بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التي يصرخها الأبي في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه أو ممالأة عدوه.

* * *

من أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحيي ضمائرهم وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء ومن أي طريق أراد.

* * *

الدينُ خُلق شأنه كبقية الأخلاق لا يرسخ في النفس إلا بتكرر الصور الدينية وتداولها عليه. فإن بَعُدَ عهدها به أغفلته وأنكرته.

* * *

إن الدعاء الى البر والاحسان والشفقة والعدل والإنصاف والصدق والإخلاص في هذا العصر إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها فيستأثروا بها من دونهم.

* * *

دعوى الوطنية كلمة بسيطة تصدر من الفم بسهولة كما يتنفس المتنفس ويتنهد المتنهد.

* * *

لا شيء في العالم ألذ للنفوس ولا أشهى إليها من تنغيص الظالمين.

* * *

إن الأمة لا تفلح بغير زعيم. وإن نقل الزعامة من يد الى يد ليس من الأشياء الخاضعة لقانون الحول والقوة بل لقانون الانتخاب الطبيعي الذي تخضع له الجمعية البشرية منذ أشرقت عليها شمس الحياة حتى اليوم. وإن توجيه النفس الانسانية من شعور الى ضده لا يأتي من طريق القـوة والقهـر بل من طريق الحجة والاقناع أو من طريق الاستدراج والاستهواء على الأقل.

* * *

الثقة نتيجة طبيعية للعمل والإحسان فيه.

* * *

قد يكون الاتحاد قوة تقوم مقام القوة المادية.

* * *

الحق صخرة عاتية لا تزعزعها العواصف ولا تعبث بها عاديات الأيام. والباطل لا قوة له وإن اجتمعت في يده جميع القوى.

* * *

لا يجد القلم لذة المراح والجولان إلا في ميدان الصدق والاعتقاد.

* * *

ما انتصر المنتصرون يومـا بقـوة سلاحهم وعدتهم بل بقوة يقينهم وإيمانهم. وما أغنى السلاح يوما عن أصحابه شيئا إذا كانت النفوس خاضرة متضعضعة، ولا ضرها فقدانه فتيلا إذا كانت النفوس في حصنٍ حصين من قوة عزيمتها وثبات عقيدتها. وما كتب التاريخ في صفحاته أنّ امة من الامم ارادت امرا وأجمعت رأيها عليه فاستطاعت يد غير يد الله ان تحول بينها وبين ما تريد.

* * *

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء.

* * *

ما الرجال ـ كما يقولون ـ إلا أنصاف ماثلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع النساء. فلا يزال أحدهم يشعر في نفسه بذلك النقص الذي

كان يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يعثر بالمرآة التي خلقت له فيقر قراره ويلقي عصاه.

* * *

لا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب، ولا خير في قلب يخفق بغير حب.

* * *

ما المرأة إلا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة على هذا الكون فتنير ظلمته، والبريد الذي يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق، والهواء المتردد الذي يهب الانسان حياته وقوته، والمعراج الذي تصعد عليه النفوس من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى.

* * *

العلم ليس وقفا على المؤلفين والمدرسين وإنما هو قرع الحجة بالحجة ومدافعة الرأي بالرأي.

* * *

إن الدهر أضن بالسعادة من أن يهبها كلها مجتمعة لشخص واحد.

* * *

إن الحب يقوّم ما اعوج من الأخلاق، ويُحي ميت الأمل في نفس المحب.

* * *

إن السعادة حقيقة من الحقائق لا يتوصل إليها من طريق الخيال.

* * *

لا تخضع النفس العالية للحوادث ولا تذل لها مهما كان شأنها، ولا تلين صلدتها أمام النكبات والأرزاء مهما عظم خطبها وجل أمرها، بل يزيدها مر الحوادث وعض النوائب قوة ومراسا وشدة ومرانا. وربما لذ لها هذا النضال الذي يقوم بينها وبين حوادث الدهر وأرزائه كأنما يأبى لها كبرياؤها أن يوافيها حظها من العيش سهلا سائغا لا مشقة فيه ولا عناء. فهي تحارب وتجالد في سبيله، وتغالب الأيام عليه مغالبة حتى تناله من يدها قوة واغتصابا. فمثلها بين النفوس كمثل الليث بين السباع لا تمتد عينه إلى فريسة غيره ولا يهنأ له طعام غير الذي تجمعه أنيابه ومخالبه.

* * *

لا صعب في الحياة غير الخطوة الأولى فإذا اجتازها المرء هان عليه ما بعدها.

* * *

إني لا أعرف سعادة في الحياة غير سعادة النفس، ولا أفهم من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة فإن تمت بدونه فلا حاجة إليه، وإن جاءت بقليله فلا حاجة الى كثيره.

* * *

إن الرجل الذي يتزوج المرأة لما لها إنما هو لص خائن لأنه إنما يأخذ ما يأخذ من مالها باسم الحب وهو لا يحبها، وعاجز أخرق لأنه قعد عن السعي بنفسه لنفسه فوكل أمره الى امرأة ضعيفة لقوته وتمونه. وساقط المروءة متبذل لأنه يؤجر جسمه للنساء كما تؤجر البغي نفسها للرجال ليستفيد من وراء ذلك قوته.

* * *

لا صداقة في الدنيا أمتن ولا أوثق من صداقة الفقر والعُدم. ولا رابطة تجمع بين القلبين المختلفين مثل رابطة البؤس والشقاء. فلو خيرت بين صحبة رجلين أحدهما فقير يضم فاقته الى فاقتي فيضاعفها وثانيهما غني يمد يده لمعونتي فيرفه عني ما أنا فيه من شدة وبلاء لآثرت أولهما على ثانيهما، لأن الفقير يتخذني صديقا، والغنيَّ يتخذني عبدا. وأنا الى الحرية أحوج مني الى المال.

* * *

لا يستطيع الغني أن يكون صديقا للفقير لأنه يحتقره ويزدريه. فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها أو يصطنعه من أجلها ولأنه يشعر من نفسه باقتداره على احتمال أعباء الحياة وحده دون أن يعينه عليها معين من الفقراء أو الأغنياء. أما صديق الفقير فهو الفقير الذي يصغي لشكاته إذا بثها إليه ويفهم معناها إذا سمعها منه ويعزيه عنها إذا فهمها عنه، ويجعل له من صدره متكأ لينا يسند رأسه إليه، وهو شاكٍ متعَب، فيجد فيه برد الراحة والسكون.

* * *

ما أقبح المهر إذا كان كله حبا.

* * *

إن نشـاط الرذيلة وشـطاطها أحرص من أن يترك للفضيلة المتئدة المترفقة في سيرها شيئا وراءه تبلغه فتلتقطه.

* * *

لا نهاية للإغراق في الحب غير الاغراق في البغض.

* * *

إن أوفى ما يكون المرء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على مصلحة نفسه، ويكفكف من نزعات قلبه وأهوائه في سبيل سعادته وهنائه.

* * *

قلب الشـاعـر مرآة تتـراءى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها.

السمـاء جميلة، والشـاعر هو الذي يستطيع أن يدرك سر جمالها، ويختـرق بنـظراته أديمها الأزرق الصافي فيرى في ذلك العالم العلوي النائي ما لا تراه عين ولا يمتد إليه نظر.

والبحـر عظيم، والشـاعر هو الذي يشعر بعظمته وجلاله. ويرى في صفحته الرجراجة المترجحة صور الأمم التي طواها والمدن التي محاها والدول التي أبادها، وهو باق على صورته لا يتغير ولا يتبدل، ولا يلبي على العصور والأيام.

والليـل موحش، والشـاعـر هو الذي يسمع في سكونه وهدوئه أنين الباكين، وزفرات المتألمين، وأصوات الدعاء المتصاعدة الى آفاق السماء، ويـرى صورة الاحـلام الطائفة بمضاجع النائمين، وخيالات السعادة والشقاء الهائمة في رؤوس المجدودين والمحدودين.

الشاعر يرى الجمال في كل شيء يتناوله سمعه وبصره حتى في الزهرة الذابلة، والنبتة الحائلة، والنحلة الطائرة، والفراشة الحائمة، وفي مدارج النمـال، وأفـاحيص القـطا، والنـؤي المتهدم، والجدث البالي، والشبح المخيف، والخيـال الرائـع، وفي الضـفـدعـة الملقاة على شاطىء البحر، والدودة الممتدة في باطن الصـخر، فهو من خياله الواسع في نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى.

* * *

إنما يشقى في هذا العالم أحد رجال ثلاثة: حاسد يتألم لمنظر النعم التي يسبغها الله على عباده، ونعم الله لا تنفد ولا تفنى، وطمّاع لا يستريح

الى غاية من الغايات حتى يثور ثائره وراء غاية غيرها فلا تفنى مطامعه ولا تنتهي متاعبه، ومقترف جريمة من جرائم العرض والشرف لا يفارقه خيالها حيثما حل وأينما سار.

* * *

الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فتثمر الرحمة والشفقة والبر والمعروف، وبالتربة الخبيثة فتثمر الحقد والغضب والشر والانتقام.

* * *

لا يفهم لغة القلب غير القلب، ولا يشعر بسر النفس غير النفس. ورُبَّ أَنَّةٍ بسيطة ساذجة يسمعها السامع في جوف الليل من ثاكلٍ منكوب تأخذ من نفسه ما لا تأخذ قطعة شعرية بليغة مملوءة بغرائب المعاني وبدائع التصورات ينظمها شاعر غير باك ويغنيها مغن غير محزون.

* * *

الغيرة دخان الحب فإذا انطفأت ناره انقطع دخانه.

* * *

السعادة كالزهرة لا تزال ناضرة ما قنع رائيها بمنظرها وأريجها. فاذا جاوز ذلك الى لمسها والعبث بها ذوت وذهب جمالها ورُواؤها.

* * *

نار الحب إن لم يتعهدها مُتَعهِّدها بالتأجيج فترت وانفثأت واستحالت جمرتها الى رماد. والحب كالطائر لا حياة له إلا في الغدو والرواح والتغريد والتنقير فإذا طال سجنه في قفص القلب تضعضع وتهالك وأحني رأسه يائسا ثم قضى.

* * *

النفس نفسان: مادية تقف عند مظاهر الحياة ومرائيها، وروحية تتغلغل في أعماقها وأطوائها. وأصحاب النفس الأولى هم أولئك الجامدون المتبلدون الذين يدورون في الحياة حول محور أنفسهم، ولا يحفلون بشيء إلا بما يتصل بمطامعهم أو بشهواتهم. وأصحاب النفس الثانية هم أصحاب الملكات الشعرية الذين صفت قلوبهم فأصبحت كالمرائي المجلوة فتراءى فيها العالم بما فيه من خير وشر ففرحوا بخيره وحزنوا لشره، ورقّت أفئدتهم فشعروا بألم المتألمين فتألموا معهم وببكاء الباكين فبكوا عليهم.

ولا تلتئم النفس المادية بالنفس الروحية بحال من الأحوال، ولا تأنس بهـا، ولا تجـد لذة العيش معهـا وليس الذي يفرق بين الصاحبين أو الزوجين أو العشيرين تفاوت ما بينهما في الذكاء أو العلم أو الخلق أو الجمال أو المال. وإنما الذي يفرق بينهما أن يكون أحدهما ماديا ضاحكا للحياة سعيدا بضحكه والآخر روحيا باكيا عليها سعيدا ببكائه.

* * *

حيثما يجد المرء سعادته في مكان مهما صغر شأنه فهو أجمل القصور وأفخمها.

* * *

دمعة الراحم كابتسامة الساخر كلاهما يؤلم النفس ويملؤها غصة وأسى.

* * *

مثل العاملين على وجه الأرض كمثل الأشجار العظيمة في الصحاري المحرقة تظلل الناس بوارف ظلها وهي تصطلي وحدها حرارة الشمس وأوارها.

* * *

المدرسة في هذا البلد حانوت قاسٍ لا تباع فيه السلع نسيئة. والعلم في هذه الأمة مرتزق يرتزق منه العلماءً لا منحة يمنحها المحسنون.

* * *

المهارة لا تدل على صاحبها بنفسها بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورفقه.

* * *

يعبث الدهر بالانسان ما يعبث ويذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء وألوان الآلام، حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه وملأ قلبه غيظا وحنقا، أطلع له في تلك السمـاء المظلمة المدلهمة بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترده بها الى حظيرته راضيا مغتبطا كما تقاد الشاة البلهاء بأعواد الكلأ الى مصرعها.

* * *

لا مثـوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مؤاساة البائس وتفريج كربة المكروب.

إن كان لا بد من سعادة في هذه الحياة فسعادتها أن يعتقد المرء أن لا سعـادة فيها ليستطيع أن يقضي أيامه المقَدَّرة له على ظهرها هادىء القلب ساكن النفس، لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب، ولا رجاءٌ خائب.

* * *

الشرف كلمة لا وجود لها إلا في قواميس اللغة ومعاجمها، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم فإنا لا نجدها. والنفس الإنسانية كالغـديـر الراكـد لا يزال صافيا رائقا حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر. والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها. وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة.

* * *

إن لكل تربة نباتا ينبت فيها، ولكل نبات زمنا ينمو فيه، وكل نبات يزرع في أرض غير أرضـه أو ساعـة غير ساعته، إمَّا أن تأباه الأرض فتلفظه، وإما أن ينشب فيها فيفسدها.

* * *

السرور نهار الحياة والحزن ليلها، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم.

* * *

إن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء.

* * *

كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضيء صفحتها، وتمر بها الشهب فتلمع في أرجائها، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوؤها ضوء جميع تلك النيران، كذلك القلب الانساني لا تزال تمر به مختلفات العواطف وأشتات الأهواء مجتمعة ومتفرقة، حتى إذا أشرقت فيه شمس الحب غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهوار.

* * *

إن العهود التي تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هي سيف قاطع في يد الأولين وغُلٌّ ملتفٌّ على أعناق الآخرين.

* * *

طريق الشر واحدة فمن وقف على رأسها لا بد له من أن ينحدر فيها حتى يصل الى نهايتها.

الوجوه مرايا النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها.

* * *

السعادة سماء والشقاء أرض، والهبوط الى الأرض أسهل من الصعود الى السماء.

* * *

العزيمة أثرٌ من آثار الإرادة.

* * *

إن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجه الذي قتله لا يمكن أن يوجد فيه طبيب محسن أو متصدق.

* * *

لا تعرف المرأة لها وجودا إلا في عيون الرجال وقلوبهم. فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين أو أقفرت أحناء الضلوع من خوافق القلوب لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء.

* * *

كما أن النار لا تطفيء النار، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى، ومقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى، كذلك لا يعالج الشر بالشر، ولا يمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء.

* * *

ليس للنساء العاهرات قلوب يحببن بها، بل لهن ألسنة يختتلن بها الرجال، ويسبلنها حجبا بين بعضهم وبعض حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها وصاحب الحظوة لديها من دون أصحابه جميعا.

* * *

إن الخليلة التي تخلص لخليلها أشرف من الزوجة التي تخون زوجها.

* * *

الأشقياء في الدنيا كثير. وأعظمهم شقاء ذلك الحزين الصامت الذي قضت عليه ضرورة من ضرورات الحياة أو أزمة من أزمات الخوف أو الرجاء أن يهبط بآلامه وأحزانه الى قرارة نفسه فيودعها هناك، ثم يغلق دونها بابا من الصمت والكتمان، ثم يصعد الى الناس باش الوجه باسم الثغر متطلقا متهللا كأنه لا يحمل بين جنبيه هما ولا كمدا.

* * *

المستقبل نتيجة الماضي وصفحته الثانية.

* * *

إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحا أخرى تماثلها وتمازجها وتسعد بلقائها، وتشقى بفراقها، ولكنه قدر أن تضل كل روح عن أختها في الحياة الأولى، وذلك هو شقاء الدنيا، وأن تهتدي اليها في الحياة الثانية، وتلك هي سعادة الآخرة.

* * *

إن الحياة الذليلة خير منها الموت الزؤام وإن الحرية حياة الأمم وروحها، والرق موتها وفناؤها، وإن الامة التي ترضى بضياع حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هي أحط الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء.

* * *

إن قطرات الدماء التي تبذلها الأمم في سبيل حريتها واستقلالها إنما هي المداد الأحمر الذي تسجل لها به في صفحات تاريخها آيات المجد والفخار. وإن الأشلاء التي تنثرها في تربة وطنها ثم تسقيها من دمائها إنما هي البذور الطيبة التي تنبت لبلادها المستقبل الحر الشريف.

* * *

إن الله لم يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا ترابا تدوسه أقدامنا وتطأه نعالنا كلما وجدنا الى ذلك سبيلا. ولم يمنحنا القوة والعزة لنتخذ منها أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم، ونستنزف بها دماءهم، وكل ذنوبهم عندنا أنهم أذلاء مستضعفون لا يملكون من القوة والعزة مثلما نملك، ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ما نذود.

* * *

إنما الاثم على الذين يقترفون الذنوب وهم يعلمون مكانها من الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ، ويحولون زمام حياتهم بأيديهم من طريق الخير الى طريق الشر إيثارا لها وافتتانا بها، أولئك هم الآثمون المذنبون الذين يجدر بنا أن نقسو عليهم، ونشتد في مؤاخذتهم. أما الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم في شأن أنفسهم ولا حيلة، فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعتبنا ولومنا. فإن وجدنا السبيل الى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة الشقاء التي هووا فيها فذاك، أو لا،

فلندعهم وشأنهم، تذهب بهم المقادير حيث شاءت من مذاهبها، ولا نزدهم بكبريائنا واستطالتنا بؤسا على بؤسهم وشقاء على شقائهم.

* * *

الدموع هي السلاح الوحيد الذي تعتمد عليه المرأة في جميع شؤونها وعلائقها.

* * *

كل الناس مذنبون آثمون. وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقترافها.

* * *

إن الناس مراؤون مخادعون يزعمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم. فهم يحتقرون المذنب، ويزدرونه لا لأنهم أطهار أبرياء كما يزعمون، بل ليوهموا الناس أنهم غير مذنبين، ولو أنهم تكاشفوا وتصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا وتهادنوا، ولما آخذ أحد منهم أحدا بذنب ولا جريرة.

* * *

إن من أصعب الأمور على رجل شريف عظيم أن يتحول في ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته، وأن ينقلب فجأة من رجل وطني مخلص يبذل دمه وحياته في سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه الى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بغرض تافه من أغراض الحياة.

* * *

إن لم تتول الأمة إصلاح شأنها بنفسها لا تصلحها أمة أخرى مهما حسنت نيتها ونبل مقصدها. والصلاح إن لم ينبت في تربة الأمة نفسها ويزهر في جوها، ويأتلف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم، لا ينفعها ولا يجدي عليها ويكون مثله مثل الزهرة التي تنقل من مغرسها الى مغرس آخر. فهي تزهر فيه أياما قلائل، ثم لا تلبث أن تذبل وتذوى.

* * *

القوة الدينية في الأمة أثر من آثار القوة السياسية. فإذا ضعف أمر الأمة في سياستها ضعف أمرها مع الأيام في دينها. ولا بقاء لدين من الأديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته إلا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها.

ليس من الرأي أن يهب الانسان متاعه رجلا مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر، أو أن يذبح نفسه بيده فرارا من ذابح يريد أن يذبحه.

* * *

الحب شقاء كله. وأشقى المحبين جميعا أولئك الذين يحبون بلا أمل ولا رجاء.

* * *

الجريمة تنتزع قلب المجرم من بين جنبيه وتغشى على عينيه البصيرتين فيصبح بلا قلب وبلا نظر، يرى ما لا يراه الناس ويخشى ما لا يخشونه. فهو لا يخاف الوحوش والهوام والجن والشياطين والصخور والأحجار، بل يخاف جرائمه وآثامه.

* * *

لا يلد الخونة المجرمون غير الأدنياء الساقطين.

* * *

إن التاج الذي يتناوله متناوله من يد عدوه ليس بتاج الملك إنما هو قلنسوة الأعدام.

* * *

إن الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته في سعادة لا يهنأ بمثلها الملوك في قصورهم.

* * *

اليـأس هو الخديعة الكبرى التي يدسها الشيطان دائما في نفوس الأمم الضعيفة التي يريد قتلها والقضاء عليها.

* * *

إن الجبهـة العـالية لا تحتاج الى تاج يزينها. وإن الصدر المملوء بالشرف والفضيلة لا يحتاج الى وسام يتلألأ فوقه.

* * *

اليأس يقتل الفضائل في النفوس ويميتها.

* * *

العـرض أثمن من الحياة. فإن كان من يمنح الحياة فاقدها شريفا فأشرف منه من يرد العرض الضال الى صاحبه المفجوع.

إن الصداقة الباردة المتفككة التي يسعى وراءها الناس أشبه شيء «بالياقة» الإيطالية اللينة التي تتهدل حول العنق فيتهدل العنق معها. فهي وإن كانت لينة مريحة إلا أنها رخوة مهلهلة ليست لها مِسْكة ولا قوام.

أما العداوة فهي الدرع الفولاذية الصلبة التي تدور بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتمنعه عن أن يضعف أو أن يخور. وكل عدو جديد هو حلقة جديدة في تلك الدرع القوية المتينة.

* * *

حسبك من الذكاء أن تعرف مقدار نفسك.

* * *

الجمال قوة يستمد منها الإنسان فصاحته وبيانه.

* * *

الشاعر ممثل بفطرته يلذ له دائما أن يلبس ثوبا غير ثوبه ويتراءى في صورة غير صورتـه فيمثل دور المجنون وهو عاقل، ودور الشجاع وهو جبان، ودور السعيد وهو شقي، ودور العاشق الولهان وما في قلبه ذرة واحدة من الحب والغرام.

* * *

ابتسامة المرأة لفظ مشترك يحتمل جميع المعاني وضروبها من الحب القاتل الى البغض العميق.

* * *

ما كشف أسرار الحب ولا هتك الستر عن مخابئه ومكامنه مثل مواقف الوداع.

* * *

إن أسعـد الناس حالا في هذه الحياة وأحظاهم بنعمة العيش فيها أولئك الذين منحهم الله نفسا جميلة شعرية تتعشقها القلوب، وتتشربها النفوس، وتهفو لها الأحلام، وتقوم لهم في كل موقف ومقام مقام الجمال الجثماني، إن فاتهم أو نزلت به كارثة من كوارث الدهر.

ومـا الجمـال الجثماني إلا سحابة رقيقة تطير بها برودة الهواء او هضبـة ثلجية تذيبها حرارة الشمس. وما أحب المحبون قط في الصور الجميلة جمالها ورونقها، بل جمال النفوس الكامنة في طياتها، ولا أبغض

المبغضون في الصور الدميمة قبحها ودمامتها، بل قبح النفوس المستكنة فيها. فإذا اختلف العنوان عن الكتاب في إحدى الحالتين كان الفوز العظيم للجمال النفسي على صاحبه.

* * *

إن المرء حينما يصل الى ذروة العظمة في الحياة لا بد أن تمر به ساعات مهما كان طاهرا وبريئا يشعر فيها ببعض آلام خفية تلذع نفسه وتؤلمها، وربما تبلغ في قوتها وتأثيرها مبلغ تبكيت الضمير، ولكنها على كل تزعجه وتقلقه وتستولي على شيء من راحته وسكونه.

* * *

هل استطاع العظماء أن يكونوا عظماء إلا لأنهم ارتقوا سلماً بنيت درجاتها من جماجم الموتى وأشلائهم أو أن يناموا ملء جفونهم إلا لأنهم أسهروا كثيرا من عيون البائسين والمعدمين في سبيل راحتهم وهنائهم، أو أن يمشوا في طريقهم رافعي الرؤوس شامخي الأنوف إلا لأن وراءهم كثيرا من المطرقين الصامتين الذين لا تفارق أنظارهم الأرض همًّا وكمدا.

* * *

إن السلامة والنجاة وراحة النفس وهدوءها في القناعة والاقلال.

* * *

يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام، ومن الفتاة الأدب والحياء، لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها، ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سواه.

* * *

مهما بلغت القسوة في القلب الانساني، وغمرت الشهوات شعوره ووجدانه، فلا بد أن تهب عليه من حين الى حين نفحة من نفحات الفطرة الإلهية تنعشه، وتوقظ شعوره، فيستطيع أن يعود الى نفسه قليلا، وأن يفهم أن في العالم صنوفا من السعادة غير التي يعرفها ويألفها، وربما أكبرها وأعظمها، وتمناها لنفسه وود لو طال استمتاعه بها.

* * *

ما اجتمعت القلوب على شيء هو أجمع لشملها وأوثق لرباطها من اجتماعها حول مواقف الهموم والأحزان.

* * *

ما انتفع العالم في جميع شؤونه وأحواله بمثل ما تفتقه الحاجات والضرورات، ولا نبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا في تربة الفقر والإقلال.

* * *

دع الأشرار وشأنهم لا تهجهم، ولا تعترض طريقهم، عسى أن يموت شرهم في صدورهم حينما لا يجد له مضطربا ولا منتدحا.

* * *

إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب، لا غيث يهطل من الماء. وإن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ومطامع الحياة وشهواتها سعيدةً حيثما حلت، وأني وجدت. فمن أراد السعادة فلا يسأل عنها المال والنشب والفضة والذهب والقصور والبساتين والأرواح والرياحين، بل يسأل عنها نفسه التي بين جنبيه فهي ينبوع سعادته وهنائه إن شاء، ومصدر شقائه وبلائه إن أراد.

* * *

ما كدر صفاء النفوس وأزعج سكونها وقرارها، وسلبها راحتها وهناءها، مثل عاطفة البغض، ولا أنار صفحتها وجلى ظلمتها مثل عاطفة الحب. فأشقى الناس جميعا المبغضون الذين يضمرون الشر للعالم فيجزيهم العالم شرا بشر، وأسعدهم جميعا المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم وصفاءهم فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثل ما منحوهم.

* * *

الغيبة رسول الشر بين البشر بل هي أسُّ الشرور جميعها قديمها وحديثها، لأن المرء إذا اعتقد من طريقها الشر في صديقه أو عشيره، وملكته فكرة سوء الظن به أبغضه واجتواه، وحذره واتقاه، وكان لا بد له من إحدى اثنتين: إما أن يصارحه ببغضه إياه فتصبح حياته نكدة لا نهاية لهمومها وآلامها، أو يماذقه ويداوره، فيصبح رجلا منافقا كذابا. وخير له من هذا وذاك ألا يسمع عن الناس خيرا ولا شرا.

* * *

كتاب الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذي لا يقبل تأويلا ولا يحتاج الى تفسير، والذي يرى فيه قارئه الحياة كما خلقها الله فلا حاجة به الى

من يدله عليه، أو يرشده إليه.

* * *

إن من لا خير فيه لماضيه فلا خير فيه لحاضره ومستقبله.

* * *

إن القويَّ لا يمنح الضعيف وده ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه، ولا يبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأثره، ويملك عليه زمام حياته.

* * *

العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التي لا تفنى.

* * *

إن الرجل لا يحترم إلا المرأة التي تضن بنفسها عليه، ولا يحتقر مثل المرأة التي تبذل نفسها له. أي أنه يحب المرأة الشريفة، أكثر مما يحب المرأة الجميلة، بل لا يعرف للمرأة جمالا غير جمال الأدب والعفة، وإن زعم في نفسه غير ذلك.

* * *

هل يطهر معدن النفس من أخلاطه وشوائبه، وينقيه من أدرانه وأكداره، غير تلك الألسنة النارية التي تنبعث من صدور المتألمين، وقلوب المحزونين؟

* * *

الأدب هو المرآة الصافية التي تتراءى فيه صور الحياة على حقيقتها، ومشاعر النفوس بكل ما تشتمل عليه من حب وبغض، وسرور وألم، وطمع ويأس، وارتياح وانقباض.

* * *

العزلة هي المرفأ الأمين الذي تلجأ إليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج، وتصطلح عليها هوج الرياح، وهي الواحة الخصبة التي يفيء إليها السَّفْرُ بعد الأين[٦٠] والكلال، فيجدون في ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء، ولو افح الرمضاء.

* * *

---

(٦٠)ـ الأين: التعب.

إن للمدنية شقاءً كشقاء الهمجية لا يختلف عنه إلا في لونه وصبغته.

* * *

الزهد عندي سخافة كالجشع، كلاهما تكلفٌ وتعمل لا حاجة إليه، وكلاهما خروج عن القصد، وضلال عن السبيل، فترفقوا في الطلب ولا تمعنوا فيه إمعانا، فالإمعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوي على الضعيف، والجشع المتكالب على القنوع المعتدل، يسلبه ما بيده، ويحرمه القليل التافه الذي يتبلغ به باسم جهاد الحياة، وتنازع البقاء.

* * *

لو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلا ومشربا وملبسا ومسكنا وضعت لي في كفة ثم وضعت لي في الكفة الاخرى لذتي في هداية تائهٍ ضلّ به طريقه، أو معونة يائس انقطع به أمله، لرجحت عليها.

* * *

الهيئات كالأفراد لا يعنيها إلا مصلحتها وفائدتها. وكثيرا ما تكون مصلحتها في جانب، والحق في جانب آخر، بل ذلك هو الأعم الأغلب في أمرها. فإما جاريتها فهلكت أو نابذتها فاستهدفت لغضبها ومقتها.

* * *

إن الفقير يعيش من دنياه في أرض شائكة قد ألفها واعتادها، فهو لا يتألم لو خزاتها ولذعاتها، ولكنه إذا وجد يوما من الأيام بين هذه الأشواك وردة ناضرة طار بها فرحا وسرورا. وإن الغني يعيش في روضة مملوءة بالورود والأزهار قد سئمها وبرم بها فهو لا يشعر بجمالها ولا يتلذذ بطيب رائحتها. ولكنه إذا عثر في طريقه بشوكة تألم لها ألما شديدا لا يشعر بمثله سواه وخيرٌ للمرء أن يعيش فقيرا مؤملا كل شيء من أن يعيش غنيا خائفا من كل شيء.

* * *

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دمعة واحدة عليها.

* * *

جزى الله الإيمان عنا خيرا، فلولاه لثقلت على عواتقنا هذه الهموم التي

نعـالجها، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذي يعيننا على المسير في صحراء هذه الحياة، فهو النجم الخافق الذي يلمع من حين الى حين في سماء الليلة المظلمة المدلهمة فينير أرجاءها، وهو الدوحة الفينانة التي يلجأ إليها المسافر من حرور الصحراء وسمومها فيجد في ظلالها راحتـه وسكونه، وهو الجرعة الباردة التي يظفر بها الظامىء الهيمان فينقـع بهـا غلته ويفثأ لوعته، وهو المطرة الشاملة التي تنزل بالأرض القاحلة فتهز تربتها وتحيي مواتها، وتبث في صميمها القوة والحياة.

* * *

إن رأيت شاعرا من الشعراء، أو عالما من العلماء، أو نبيلا في قومه أو داعيا في أمته، قد انقسم الناس في النظر إليه وفي تقدير منزلته إنقساما عظيما، وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شأنه، فافتتن بحبه قوم حتى رفعـوه الى رتبـة الملك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان فاعلم أنه رجل عظيم.

* * *

ليعجبك إن يختلف الناس في شأنك وينقسموا في أمرك ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب فتلك آية العظمة، وذلك شأن الرجل العظيم.

* * *

قال لي بعض الناس إن قوما يغرقون في مدحك فهلا زجرتهم؟ فقلت له إن آخـرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع شيئا. فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضا فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المُزالَة تحت الأقدام فيلتقطونها.

كلمات الأدباء والشعراء*

من أشياخ البيان

من أشيـاخ البيان عندنا السيد مصطفى لطفي المنفلوطي. أكاد لا أجد له في طريقته مثيلا بين كتابنا. فإنه يمتاز بالمساواة. وقل من يعرف المسـاواة. يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى إلا لفظه الذي يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر. ويطرق الموضوعات الصعبة البعيدة فيقربها من القارىء، ويجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن كذلك من قبـل. وأقـول من غير محاباة أن السيد مصطفى هو الثمرة الناضجة للعصر الكتابي الحاضر، جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب الأصيل.

أحمد لطفي السيد

(النظرات، ج ١، ط ٢، القاهرة ١٩١٣، ص ٩)

(وردت أيضا في: كلمات المنفلوطي)

من كتاب الطبقة الأولى

السيد مصطفى لطفي المنفلوطي رجل من كبار كتاب القلم في زماننا. فهـو من كتـاب الطبقة الأولى، وشعراء الطبقة الثانية، له نثر يستميل القلوب، ويوافق الطباع، سهل فصيح، ألفاظه أرفع من معانيه.

ولي الدين يكن

(المصدر نفسه ص ١٠. وردت في: كلمات المنفلوطي)

كاتب كبير

لقد كنت أمقت «المؤيِّد» كل المقت إلا يوم تنشر فيه نظرة أو أسبوعية. فقد علم الله أني كنت أشغف به كل الشغف، وأقبل عليه كل الاقبال. فان الذي يكلفني عرق القُـربة[٦١] الى مغنى البوسفور والبيلفدير ومهرجان

* ـ الكلمات والخطب والاشعار التالية وضعنا لكل منها عنوانا مناسبا.

٦١ـ القربة: القرب.

النيـل هو بعينـه الذي يكلفني قراءة المؤيد يوم تنشر فيه مقالات هذا الكاتب الكبير.

طه حسين

(المصدر نفسه ص ٩)

(وردت في : كلمات المنفولطي)

يفيض حلاوة ودماثة

مصطفى لطفي المنفلوطي حلو الوجه، دمث الخلق، كريم الطبع. فهو وأسلوبه مصداق المثل الفرنسي القائل بأن الأسلوب هو الانسان.

فأسلوب المنفلوطي يفيض حلاوة ودماثة وسجاحة. فإذا قرأت مؤلفاته وجدت السبط السهل من الكلام المونق المزوق. وقد تعبر الكتاب من أوله الى آخره فلا تجد فيه كلمة نافرة أو جملة جعدة. وتشعر وأنت تقرأ أحد موضوعاته بسهولة في التركيب والانشاء توهمك أنه لا ينقر على الألفاظ، ولا يغوص الى الأعماق، إما لأنه قد ألف السهولة، فاكتفى من المعاني بما على المسح دون أن يجهد قريحته، أو لأنه قد راض نفسه على اختيار الأحسن والأنصع، حتى أسلس له الكلام وصار كده القديم عفوه الراهن.

والمنفلوطي يمتاز على جميع كتاب مصر باستطاعته أن يعيش بقلمه عيشا رضيا، فإن له مكانة رفيعة بين الشبيبة تجعل كتبه في رواج مطرد. وحسنـا يفعل الآباء في تعويد أبنائهم أسلوب المنفلوطي فان أفضل ما يوضع بين أيدي الطلبة هذه الكتب القيمة التي ألفها. وأنعم بجيل ينشأ وقد قرأها وتذوق حلاوتها وتأثر بطريقتها واحتذى أسلوبها!

سلامة موسى

(مجلة الهلال، القاهرة، نوفمبر ١٩٢٣، ص ١٥٥)

(وردت ايضا في : كلمات المنفلوطي)

استحق ما ناله من شهرة

... كنـا ومـا زلنـا من خصـوم المذهب الأدبي الذي يمثله المرحوم المنفلوطي فيمن يمثلونه. وقد نعينا عليه أسلوبه ومنحاه في فصل طويل

كتبناه عنه ونشرناه في «الديوان» لأنا من القائلين بأن علينا أن نحيا حياتنا، وأن نطلع على الدنيا بعقولنا. وأن نحسها بأعصابنا، لا أن نعيش بأجسامنا في هذا العصر، وأن نتابع بعقولنا وأعصابنا أجيالا تعفت بخيرها وشرها وحقها وباطلها.

وقد صدق القائل في رجل أنيق الملبس حسن الهندام: «إنه ليس كله مما صنع الحائك فان بعضه مما صنع الله»! وهي كلمة مزاح رمى بها الى الجد وبطنها به. وأصدق منه وأدنى الى الصواب وأشبه بالحق قول القائل: «إذا أريتني رجال العصر المشهورين فقد أريتني العصر الذي أخرجهم» فليس من شك في أن المنفلوطي أصاب حظا وافرا من الشهرة، واستفاضة السمعة، وأن كتبه العديدة تلقى إعجابا وموافقة ليس بهما من خفاء. فإذا كان هذا دليلا على شيء فهذا الشيء عندنا هو أنه ابن عصره، ووليد زمنه الذي نشأ فيه، وأن بينه وبين جمهور قرائه تشاكلا لا يزال مستمرا الى حد كبير في عصرنا هذا. وقد يصعب على من تأخر به الزمن عن المنفلوطي وورد شرعة أخرى من الأدب أن يقدر النجاح الذي وفق اليه رحمه الله من أول الأمر. ولكن ذلك يسهل إذا استطعنا أن نحضر الى أذهاننا الأحوال والظروف التي كانت غالبة سائدة قبل عشرين أو ثلاثين سنة. فقد كان أدب المنفلوطي والمويلحي وأضرابه من قبله جديدا في ذلك الوقت. وكانت له كل فتنة الجدة وروعتها لا في مصر وحدها بل في الأقطار العربية الأخرى أيضا. وقد نفعه كما نفع غيره اتصاله بالامام المرحوم الشيخ محمد عبده. ولم يكن الأدب قبل ذلك إلا عبثا محضا وإلا سلوة يطلبها من حين الى حين كل فارغ القلب والرأس من المتظرفين. وكان ينقصه حتى حسن المظهر. فلما ظهر المويلحي وأضرابه ثم المنفلوطي وغيره في عالم الكتابة كان الناس في حالة انتظار فأخذوا بالصقل والزينة، وخدعتهم صورة النار، وإن كانوا لم يحسوا دفئها وحرارتها لأنه لا نار هناك. وكانت تلك خطوة بقي الأدب بعدها سنوات وهو عبارة عن رصف الكلمات ورص الجمل على نحو ما كان يفعل العرب، أي انه كان تقليدا وحكاية لصور من الحياة عفى عليها الزمن، لا تصويرا للطبيعة والحياة كما هما في الواقع، ولا تمثيلا للعواطف والآمال والأحزان والمسرات التي تجيش بها نفوس الأحياء.

ولم تتغير الدنيا كثيرا في مصر، لأن التعليم يمشي ببطء ولأن الذين يوكل

إليهم تعليم الأدب عندنا هم في الأغلب والأعم ممن لا عهد لهم بغير أدب التقليد، وممن لم يدرسوا حتى الأدب القديم في ضوء العلوم والمعارف الحديثة وبروح الحياة العصرية ، ولم يساعدهم الحظ على التوفر على دراسة آداب الأمم الأخرى. ومن هنا بقيت للمذهب القديم سُمْعته، وظلت سوقه رائجة. فإذا أضفت الى ذلك أن المنفلوطي رحمه الله كان دمث الاخلاق سلس الطباع حسن المعاشرة مؤثرا للسلم على الخصومة، وأنه كان مستقيم النظر في الأمور العملية عارفا بمواردها ومصادرها ـ نقول إذا ذكرت هذا كله استطعت أن تدرك السر في نجاحه، وأن تقدره قدره ولا تعدو به منزلته.

وليس فيما نقول غمط أو تنقص للمنفلوطي. وعندنا أن شهرته التي نالها بجده وكده، وبملائمته لروح عصره هي مما استحقه في حياته بلا مراء. ولو كان العصر الذي أخرجه أرقى وأسمى آمالا وأوسع روحا وأبعد مطارح نظر وأكبر همة لما استطاع لا هو ولا سواه من رجال المذهب القديم أن يظهروا. ولكن التطابق كان شديدا والتشاكل عظيما فوافق شن طبقة وخل القطب بموضعه من الرحى. ونذهب الى ما هو أبعد من ذلك قليلا فنقول إننا على إنكارنا هذا المذهب القديم في الأدب لا يخفى علينا أن رجاله كان لهم فضل يذكر في نشر اللغة العربية وترقية أساليب الكتابة ولفت الناس الى ذلك الميراث الجليل الذي تركه لنا العرب وأهمله آباؤنا قروناً عديدة.

ابراهيم عبد القادر المازني

(وردت في: كلمات المنفلوطي)

قرب بين أسلوبي الانشاء والكتابة

... كانت الوصية الأولى لطالب «الانشاء» عند أساتذة اللغة العربية باجماع الآراء: إقرأ كتب المنفلوطي واكتب على منواله.

وكانت موضوعات الانشاء كلها تنتهي بالبكاء على بطل من الأبطال المألوفين في النظرات والعبرات، وهم كلهم أناس يبكون ويبكي عليهم مخذولون منكسرون أو مضيعون في ذمم اللئام وقرناء السوء، وقل منهم

من هو مسؤول عن خيبته أو قادر على إنصاف نفسه والاقتصاص لها ممن يجنى عليه، وكان من دَيْدَن التلاميذ إذا كان الموضوع في غير هذه الأغراض أن ينحرفوا به الى عبارة محفوظة يستطردون بعدها الى مناسبة للبكاء والشكوى يسردونها أحيانا بكلماتها المسطورة في القصة أو المقال...

ولكن المنفلوطي في غير هذه الزاوية، يعرف بمكانته الأدبية العامة.. فلا يعرف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين من مطلع النهضة الكتابية قبل مولده الى ما بعد وفاته، فليس بين أدبائنا الناشرين من استطاع أن يقرب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الكتابة كما استطاع صاحب «النظرات» و«العبرات»، فربما ذهب القصد في الكتابة بجمال الانشاء في أساليب الناثرين المجيدين، وربما ذهب الأسلوب «الانشائي» الجميل بالمعنى المقصود في كتابة أدباء الفكر والتعبير، ولكن المنفلوطي ـ قبل غيره ـ هو الذي قارب بين الجمال والصحة على نسقه الفصيح في سهولة لفظ ووضوح معنى وسلاسة نغم، وهو لا يبلغ مبلغ التبرج بالصقل والزينة، ولا يترك التبرج والزينة ترك المتقشف في مسوح النسّاك، وليس لدروس الانشاء نموذج أصلح من هذا النموذج من وجهته الفنية، وعن أدبه هذا أقول في بعض فصول «المراجعات»:

«إنه احد الذين ادخلوا المعنى والقصد في الانشاء العربي، بعد أن ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد.. وكانت الكتابة قبل جيله قوالب محفوظة تنقل في كل رسالة.. وكانت أغراض الكتابة كخطب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة إلقائها..

وقد اطلعت على مجموعة وافية مما كتب المنفلوطي للفن وما كتب بغير كلفة، فكان لكتابته على كلا النمطين المتباعدين طابع الرائد المجاهد في أمثال هذه الرسالة: رسالة التقريب بين حفاوة الانشاء ورخصة الخطاب واطراح الكلفة.

ويتمثل طابع الرائد في تباعد الشقة بين موضع الحفاوة وموضع الرخصة مما يكتب للفن وما يكتب لخصاة أمره.. فكان المنفلوطي «يدبج» مقالاته الفنية فلا يفوته موضع العناية بكل كلمة وكل فاصلة، وكان يكتب رسائله لصحبه ـ ومنهم المتعلمون بل المعلمون ـ فلا يبالي أن ترد فيها أمثال هذه التعبيرات الدارجة: «فيدوني تلغرافيا» أو «مرسول لحضرتكم»

أو «تـأملوا الاسـطوانـات حتى لا تكـون مستعملة ثم ارسلوهـا في البوسطة..» أو «فهموها أن ترسل شهادة المدرسة المتخرجة فيها».. أو «أهديك سلامي» أو «تلامذتك بخير يسلمن عليك وأرجو تبليغ سلامي لحضرات الإفاضل اخوانك المعلمين..»

وكلها من شواهد النظر الى الكتابة الفنية كأنما هي كتابة «الاستعداد والحفاوة» وما عدا ذلك من كتابة الأغراض الخاصة فرخصة العرف فيها أولى من كلفة الاستعداد، أو كلفة «السمعة والحشمة!»

عباس محمود العقاد

(رجال عرفتهم، القاهرة، كتاب الهلال، ١٩٦٣، ص ص ٦٥ ـ ٧٣)

كان قطعة موسيقية

... كان المنفلوطي قطعـة موسيقيـة في ظاهـره وباطنه. فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزي، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة. كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكـر في جهـد، دقيق الحسن في سكـون، هيوب اللسـان في تحفظ. وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر العيى الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة. ومرجع ذلك فيه الى احتشام التربية التقليدية في الأسرة، ونظام التعليم الصـامت في الأزهـر، وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس. ولكنك إذا جلست إليـه رأسا الى رأس، تسرَّح في كلامه وتبارى لسانه وخاطره في النقد الصريح والرأي الناضج والحكم الموفق والتهكم.

... كان المنفلوطي أديبـا موهـوبـا حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة، لأن الصنعة لا تخلق أدبا مبتكرا ولا أديبا ممتازا ولا طريقة مستقلة. والنثر الفني كان على عهده لونا حائلا من أدب القاضي الفاضل، أو أثرا مائلا لفن ابن خلدون، يتمثل الأول قويا في طبقة المويلحي وحفنى ناصف، ويظهر الثاني ضعيفا في طبقة قاسم أمين ولطفي السيد.

ولا يستطيع ناقد أن يقول إن اسلوبه كان مضروبا على أحد القالبين، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره، بديعا

أنشأه الطبع القوي على غير مثال. والفرق أن بلاغة (النظرات) مرجعها الى القريحة، وبلاغة (المقدمة) مرجعها الى العبقرية.

أعلم أن المنفلوطي تأثر في القديم بابن المنتفع وابن العميد، وفي الحديث بجبران ونعيمة، ولكن هذا التأثر دخل في فنه دخول الإلهام والايحاء، لا دخول التقليد والاحتذاء، فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج، وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة. ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحدا من أولئك جميعا.

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس، وبلغ في إجادتها شأوا لا ينتظر من نشأة كنشأته في بيئة كبيئته. وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و(اليتيم). وأمثالهما فنطرب للقصة على سذاجتها، أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته. وسر الذيوع في أدب المنفلوطي ظهوره على فترة من الأدب اللباب، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب، في أسلوب طلٍّ وسياق مطرد ولفظ مختار. أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أمران: ضعف الأداة وضيق الثقافة. فأما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن عالما بلغته ولا بصيرا بأدبها. لذلك نجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه. وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق، ولم يتصل اتصالا مباشرا بعلوم الغرب. لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والاحالة. فاذا قدر الله لأدب المنفلوطي أن يفقد سحره وخطره في أطوار المستقبل، فان تاريخ الادب الحديث سيقصر عليه فصلا من فصوله يجعله في النثر كالبارودي في الشعر، وكفى بذلك عنوان فضل وخلود ذكر.

احمد حسن الزيات

(من وحي الرسالة. ج ١، ص ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠)

براعته في طريقة كتابته

الكتاب المجيدون على اختلاف مللهم وأجناسهم فريقان: فريق تتجلى إجادته في (ما يكتب). وفريق تظهر براعته في (كيف يكتب) يريك الأول حسن معانيه، ويريك الثاني حسن إيراد معانيه.

يكون الفريق الأول مِلْكاً شائعا للانسانية كلها لا يختص به قوم دون

قوم، ولا أمــة دون أمة. يترجم الى كل لغة. ويقرؤه الناس جميعا على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، فيطربون له، ويتلذذون به.

ويكون الفريق الثاني مِلْكاً خاصا لأمته لا تشاركها في التلذذ به أمة أخرى.

ينقل أدب الفريق الأول الى لغة غير لغته، فلا يفقد شيئا من روعته وجلاله، ويستعصي أدب الفريق الثاني على الناقل، فإذا حول بعد طول التعب، من اللغة التي وضع بها الى لغة سواها، فقد طلاوته التي يعتز بها، وجرد من مقومات جماله.

وقد كان السيد (المنفلوطي) من الفريق الثاني، الذي تتجلى براعته في طريقة كتابته، أي في (كيف يكتب) لا في (ما يكتب). ولهذا كان أدبه ملكا خاصا للأمة العربية، لا ينقل الى سواها، فإذا نقل فسد جماله، واستحال رونقه ورواؤه.

كان (المنفلوطي) أبرع كتاب العربية المعاصرين على الاطلاق في انتقاء الألفاظ وتخيرها ومراعاة المشاكلة بينها في الرصف والتنسيق، والالتفات الى رنات مقاطعها، وموسيقية مخارجها (تلك طريقته في الكتابة).

ولم يكن صاحب آراء ممحصة مستمدة من علوم مقررة، بل كان يروي أبدا عن وجدانه، وينظر الى الشؤون التي يتصدى للكتابة فيها نظرة شاعر لا يرى من الأشياء إلا ظواهرها وسطوحها، فلا يتعب قراءه، ولا يحوجهم في فهم ما يكتب الى إجهاد فكر، وكد ذهن. وهذا هو سبب إقبال الناس على آثاره.

وقد ظهر المنفلوطي في عالم الأدب، في صباح النهضة الحاضرة، التي هي أجل شأناً من كل نهضة تقدمتها. وكان الأدب العربي إذ ذاك واهنا مريضا يسير متوكئا على عصى عجراء قد نخرها سوس الفساد. وكانت أساليب الكتابة تتراوح بين خشن جاف، وسوقي ركيك.

كان الأدب العربي يوم ظهور (المنفلوطي) فارغا عريانا، يحتاج الى روح قوية من المعاني تملأ فراغه، والى ثوب جديد جميل من الألفاظ يكسي عريه، فكان (المنفلوطي) في مقدمة الكتاب الذي اشتركوا في نسج البردة المفوّفة الفضفاضة التي يرتديها اليوم.

لم تكن ميزة (المنفلوطي) في تفكيره، فإنه لم يكن من أولئك المفكرين الذين يرسلهم الله بين حين وحين، ليقلبوا عقائد الناس وأفكارهم رأسا

على عقب ويحولوا مجرى حياتهم الاجتماعية، ولكنه كان كاتبا تعرض له الفكرة التي تعرض لسواه من الناس فيصورها صورة يعجز غيره عن تصويرها.

وهذه هي ميزته كلها.

أما أثر أدب (المنفلوطي) في سير الأدب العام، فهو، على ما أرى لم يتعد المادة اللفظية. فقد كان أدبه عاملا قويا في تهذيب الأساليب الكتابية العربية، وفي إحياء كثير من المفردات اللغوية الشريفة، وإدخالها في المحصول اللغوي للأدب الحديث.

احمد شاكر الكرمي

(كلمات المنفلوطي: قيلت في حفل تأبينه بالمجمع العلمي العربي في دمشق)

الثبات صفته البارزة

لم يكن بالعبقري المبتدع في الفكر ولا الباحث المنقب عن أسرار الوجود والحياة. لذلك رأيناه يجهد نفسه في أول أمره بابتكار الأسلوب الذي يسير عليه، حتى سلس له بعد المران فأصبح طبعا فيه. وساعده على ذلك حافظته النادرة وخياله الفسيح. أما عشق الحقيقة والمجاهرة بها والتضحية في سبيلها وهي صفات العبقرية فلم توجد عند أمير البيان العربي إلا بمقدار، برغم محاولته الظهور بمظهرها، وإلا لما رأيناه يماشي الجمهور ويخضع لحكمه، ولما شاهدناه وهو الكاتب الذي خلق كاتبا أديبا سحارا يترك الموضوعات الأدبية ويشتغل في الكتابات السياسية أخيرا فيجيء فيها أديبا قوي العاطفة الوطنية فصيح الأسلوب، بَيِّن التراكيب، أما المنطق السياسي والحجة الحقوقية فلا تجدها في كتاباته السياسية الا ما ندر. ومطالعة الجزء الثالث من نظراته تؤيد ما أقول.

أما الصفة البارزة فيه من آثار العبقرية فهي الثبات. فقد ثبت المترجم في حياته الأدبية. وكتب وألف ونشر طول حياته من غير أن يعتريه سأم أو ملل.

ومما يدل على أن المنفلوطي لم يكن من أولئك الذين حظوا بجبروت التفكير وقوة الدماغ انصرافه الى المأساة في ما أنشأ ونقل عن أدب

الغرب. يريد فيها تحريك الشعور واستفزاز العواطف لتكون له شخصية محبوبة لدى القراء لأنه يعجز عن أن يأتي بآيات في الفكر أو يقوم بدعوة تحتاج الى صراحة وجرأة لم توجد عند الرجل.

إن ما يمتاز به المنفلوطي ويتفرد به دون غيره من حملة الأقلام، بل يبلغ حد الإعجاز الذي لا يجاري هو أسلوبه، ذلك الأسلوب السائغ المحبب الشفاف الذي تسيل الرقة والسلاسة فيه كما يسيل الماء الزلال. فالقارىء يحسُّ بدماثة أسلوبه وعذوبته فيمتلك عليه روحه ببيانه الناصع فيشغف به الى حد الجنون، إذا كان ممن يدركون إعجاز لغة الضاد ويشدهون بساحر لفظها.

ومن أسلوب المنفلوطي يعرف مذهبه في الكتابة. أما في الشعر فلا طريقة خاصة ولا أسلوب له. وقد أحس من نفسه بهذا فهجر الشعر ومال الى الكتابة.

والكتاب فريقان: فريق يعني بما يكتب وفريق يعني بكيف يكتب: الأول يهتم بالمعاني والثاني يهتم بالألفاظ. وقد كان الأستاذ المنفلوطي من الفريق الثاني. لذلك انصرف بكليته الى اتقان الأسلوب، فبلغ فيه القمة وجاء بأسلوب مشرق زاه، قليل الكلفة والتصنع متألق الجمل واضح المرمى حلو الاتساق. وهذا الكاتب القدير يتعَمَّد أن يغشي على القلب فيحركه، وأن ينزل بمعانيه إلى قرارة النفوس ليأسرها، وأن يسمعك النشيج والنواح، لتنحدر دموعك. وهكذا يحتال على قارئه بما يثير في صدره من زفرات، ويسكره باللفظ المونق اللماع والمتانة في التعبير، فلا يعود القارىء يفكر بعدها بما في كلامه من جلال المعنى ودقة الفكر. وشارة الحزن ماركة مسجلة للمنفلوطي في كتاباته ولا سيما قصصه وحكاياته. فهو فيها رقيق الشعور يبكي على الدوام ويستبكي، وإن وجدته في بعض المواقف يتعمل البكاء تعملا إذا لم يجد إلى البكاء سبيلا..

ومن صفاته القلبية النادرة أنه يخاطب الناس كلهم على اختلاف طبقاتهم في كتابته. لذلك أحبه الجمهور. وأقبل على آثاره إقبال الجياع على القصاع.

رفائيل بطيّ

(قيلت في حفل تأبينه بالمعهد العلمي في بغداد)

(ووردت في: كلمات المنفلوطي)

فيكتور هيجو العرب

لقد خدم السيد المنفلوطي بظهوره الانشاء العربي خِدمةً كبرى، خدمه بأسلوبه المبتكر الجديد الموشّى بالروعة والجمال، والمصطبغ بصبغة بديعة خلابة ذات تأثير قوي على النفوس. فكانت جهوده نحو لغته أعظم جهود أنتجت نتاجها الحسن. وقد أعطى الذين يرمون لغة الضاد بالجمود المثل الحي بأنهم واهمون في تصوراتهم وخبطهم المزري، وأثبت لهم ان وهمهم أثر جمودهم لا جمودها، فكان ظهوره مبعث يقظة لمست القلوب في مشارق العالم العربي ومغاربه.

وقد كان ـ عزّى الله به محبيه ـ من الكتاب القليلين الذين عرفوا أن يهزوا العواطف ويؤثروا على جمهور القراء، فهو من تلك الطبقة القليلة التي شذت عن جمهور الكتاب الذين حصروا كتاباتهم وما تنتجه قرائحهم الفياضة بفئة مخصوصة لا يستطيع غيرها ان يقرأها بفهم ويتذوق معناها الحقيقي.

إذن فعلينا أن نعترف بأن المنفلوطي قد أعطى بمبتكر أسلوبه وطريقته الجديدة نموذجا حيا لمن يريد أن يعالج موضوعا اجتماعيا أو علميا، وكان رفيقا صادقا لكل من قرأ العربية وأخذ منها بنصيب وافر، وأستاذا لكل شاب درس العربية وعرف محاسنها، وما زال ـ وهو في عالم الخلود ـ أستاذا كبيرا لناشئتنا الفتية يخلب أفئدتها ويسحر ألبابها ببيانه المؤثر وأسلوبه الساحر.

سادتي.

لي نظرية عن السيد المنفلوطي قد لا يقبلها بعضكم على علّاتها، ولكني بالرغم عن ذلك أقول بها لأني أعتقدها حقيقة، وليس في بيانها من خير أو ضرٍّ طالما الانسان مسؤول عن آرائه وهاكم هي:

أعتقد جيدا أن لبعض النفوس ولعا كبيرا في التجدد وفي هدم النظم على علاتها بدون نقد أو تمييز فيهدمون كما يدفعهم إليه ميلهم، ولكن سرعان ما تضعف عزيمتهم ويقفون حائرين عندما يجيء دور البناء، وبعض النفوس الكبيرة بآمالها، والقوية بعزيمتها وجهادها لا تقف إذا ما اختطت خطة التجدد عند الهدم، بل تتعداه وتنشط للعمل الصالح المنتج فتسير مجمعة كل قواها الى أن تَبْلغ ما صبت نفسها إليه، والسيد

المنفلوطي من هذا القسم الثاني. فقد هدم الطريقة القديمة في الانشاء وبنى خطة صالحة وافقت النهضة الحديثة وهوى الجمهور على اختلاف طبقاته، وأصبح يمثل في تجدده جيلا كاملا وأدبا جديدا. ولو ان الايام بعدت بيننا وبين المنفلوطي بعصر كامل، والتفتنا نشير الى أدب ذلك العصر لما رأينا تعريفا له أحسن من قولنا هذا عصر المنفلوطي. ولو أنني وقفت يوما أدرس أدب المنفلوطي درسا استقرائيا وكان تقدمني بجيل كامل ـ ثم التفت أبحث عن الكتابة وأثرها في عصره وقبيل ظهوره بسنوات ثم مررت بنظري على الآداب العربية منذ تولاها الانحطاط والموت الى أن بعثت لحكمت بأن ناشئة جيل المنفلوطي الذين أدركوه ـ تأثروا بأسلوبه واحتذوا طريقته في التصوير والانشاء.

هذه نظرية قد لا يوافقني عليها بعض أدباء العرب ولكن الذي يعرف مقدار انكباب الناشئة على مؤلفاته، واستظهارها لأكثر آياته كما كانت تحفظ أمثال العرب وأبيات الشعر الحكمية لوافقني بما رميت اليه.

هذا ما نقوله عن أدب المنفلوطي من الجهة العامة، ولنقل باختصار كلمات صغيرة عن شعره ثم خلقه ومنزلته ثم عن مؤلفاته، وبذلك يكون ختام كلامنا:

«وهنا تكلم عن شعره ثم انتقل منه الى الكلام على خلقه ومنزلته فقال»:

لم يتح لنا أن نزور مصر معشوقتنا الحرة وقبلة العالم العربي في نهضته وحركته ـ لنتعرف على رجالاتها وأكابر أدبائها، لذلك لا نتحمل تبعة أقوال غيرنا عن السيد الراحل وان أجمع الكثيرون على إطراء خلقه ومدحه..

وإذا كنا نقبل نظرية الكاتب الافرنسي بول هرفيو الذي يذهب الى أن الانسان مهما تظاهر بمعرفته أمورا كثيرة عن أخلاق صديقه ودخائل نفسه فهو مخدوع جاهل لأنه يجهل نفسه وما تنطوي عليه من خير أو شر، وأن من يجهل نفسه فهو أحرى بأن يجهل نفسية غيره أو أخلاقه مهما اتصل به.

نعم: إذا قبلنا هذه النظرية التي تخال إلينا صحيحة وعملنا بها فيكون كلامنا عن أخلاق الرجل مع عدم اختلاطنا به كلاما زائفا غير مقبول.

ولكننا إذا رجعنا الى كل ما كتبه الفقيد في الأخلاق والاجتماع وفي

الوطنية والسياسة وفي كل مرمى من مرامي الحياة، وكانت الكتابة صورة لما يحسه الكاتب ويعتقده، فكتابات المنفلوطي تعطينا صورة جلية عن خلقه ونفسه العظمية.

واذا كان الشعر هواجس النفس ولغة القلب، وكان المنفلوطي قد قال شعرا في فترات مختلفة من سني حياته فيجمل بنا ـ ونحن نتكلم عن خلقه ـ أن نذكر له ثلاثة أبيات يخال إلينا أنه نظمها في ساعة خلى فيها بنفسه وهي أحسن ترجمان يصفه، وأبلغ من كل قول يقوله غيره عنه وهاكم الأبيات:

إذا ما سفيه نالني منه نائل
من الذم لم يحرَج بموقفه صدري
أعود الى نفسي فإن كان صادقا
عتبت على نفسي وأصلحت من أمري
وإلاَّ فما ذنبي الى الناس أن طغى
هواها فلا ترضى بخير ولا شر

ألا تَنمُّ هذه الأبيات عن عظم نفس المنفلوطي؟

ألا نلمس حلمه وإباءه؟ وهزءه بالجهال والسفهاء؟..

ألا نذكر الآن نظرية الاجتماعيين بأن الرجوع عن الخطأ صواب وأن هذه الفضيلة كانت إحدى خلائق السيد الراحل، بينا كثير يظلون في خطأهم وعنادهم إذا ما هداهم مصلح الى محجة الصواب؟ وبالتالي ألا تعطينا هذه الأبيات صورة الرجل الفيلسوف الذي خبر الحياة حلوها ومرها، بؤسها ونعيمها، وأصبح لا يعبأ بقول السفهاء الأشرار ونفوسهم طاغية في هواها لا يرضيها الخير ولا الشر.

«ثم أردف هذا بكلمة عن مؤلفاته وختم الخطاب بقوله»:

لقد مات المنفلوطي فهوى كوكب الأدب المنير، وذوى غصن من حدائق الفضل نضير.

مات المنفلوطي فمات فيكتور هوغو العرب، وأناتول فرانسها.

مات المنفلوطي ذلك الرجل الذي إن وصف لك اليتامى والمساكين جعل قلبك عصارة من الرحمة والحنان، وإن حدثك عن فن من الفنون صور لك الجمال بصورته الساذجة اللطيفة، وان وصف لك الطبيعة، أسمعك

ما بها من طير يغرد وعصفور يشجي، وأراك ما هي عليه من بهجة وجمال، وإن حدثك عن الزمن جعلك في ريب وشك وحذر من دهر خائن كذاب! وإن حدثك في الوطنية رأيت قلبا ملتهبا ثائرا وعينا ساهرة لا تنام! وإن كلمك في الحب أراك عناصر الحياة تتنازع وتتدافع وأفسح أمام عينيك طريقاً كلها أنوار وجمال وأسمعك أناشيد الصبا المملوءة بالاغاريد المعسولة.

هذا هو الذي نحتفي بذكره اليوم وتهتز نفوسنا جزعا على فقده.

سامي الكيالي

(كلمات المنفلوطي: قيلت في حفل تأبينه في حلب)

مدرسة بالمراسلة

ما كانت مطابع مصر تصدر أثرا من آثار الفقيد حتى يدوي صداه بين أبناء العرب كافة فيسرعوا الى اقتنائه، ويعكفوا على دراسته، ويتخذوه قاعدة يحتذون مثالها في تعلم الكتابة والتمرن على الإنشاء. وهم يجدون في كل ما كتبه رحمه الله نموذجا للكتابة القديمة الراقية من حيث سهولة التعبير، والافتنان في الموضوع، وإيداعه ما يلائم أبناء هذا العصر من الأفكار والآراء الحديثة، وإفراغ المواضيع في القالب الروائي القصصي الذي يغري بالمطالعة، ويشوق إليها، مع جودة طبع الكتاب وعنايته بالتصحيح والضبط. فما أشبه المنفلوطي وقراء آثاره بمدرسة لتعليم الانشاء مما يسمونه (التعليم بالمراسلة): يقيم المنفلوطي رحمه الله في مصر وتلامذته منتشرون في الأقطار العربية الأخرى. فهو يرسل اليهم من وقت الى آخر درسا من قلمه الساحر يطالعونه باهتمام وانعام نظر حتى إذا أتوا عليه، وحذقوا ما فيه عاد فأرسل إليهم درسا آخر، وهكذا. فكم كانت تلك الطريقة مباركة على الناشئين من أبنائنا، وكم كان السيد المنفلوطي عاملا على إلقاء بذور صناعة الانشاء في العالم العربي مع كل ريح تهب، وكم خسر طلاب الأدب بموته أستاذا كريما، وملقنا عظيما.

عبد القادر المغربي

(كلمات المنفلوطي: قيلت في حفل تأبينه بالمجمع العلمي العربي في دمشق)

كان يؤثر الكتاب على الحياة

كل هذه الروايات والقصص إن هي إلا حكاية الحب وحكاية هنائه وعذابه، وسعادته وآلامه. وهنا سر من أسرار النجاح العظيم الذي نعم به المنفلوطي، أعني نجاحا أقرب مقياس يقاس به هو انتشار كتبه ونفاقها بشكل لم نر مثله لأحد من أدباء هذا العصر. هذه أقل ما تكون بشارة خير: كثر عدد القراء.

لأمــر ما بدأت بالكـلام على معربات الفقيد. فاني أحسبها خير ما أخـرجـه لقراء العربية، برغم أنها ليست في الأصل خير ثمار القرائح الأوروبية، وبرغم انها مترجمة بالواسطة، وبرغم انه كان للمنفلوطي غفر الله له رأي في التعريب عجيب وجرأة على التغيير والتحوير والقلب عاليا على سافل، جرأة لا يسمح المؤلف نفسه لنفسه بأكثر منها. والمعربات برغم هذا كله خير ما أخرجه أستاذنا من وجهة نظرنا الآن.

* * *

أما وضعه أو تصنيفه فقد يسترعي الذهن فيه أن المنفلوطي رحمه الله كان يؤثـر «الكتــاب» على الحياة، ويرجع إليه اكثر مما يرجع اليها في التصور والتفكير والشعور.

أما حسن اختياره للفظ وحسن ذوقه في البيان فقد بلغ غاية قصوى. وإن لإنشائه موسيقى ساحرة ليس أملك منها للنفس وألطف وقعا على السمع، لولا وحدة النغم التي تكاد تخدر القارىء والسامع كتهليلة النوم للأطفال، ولولا أن جملته كثيرا ما تحط في مقام المفعول المطلق: ينفعل انفعالا، ويستحسن استحسانا، ويقدم إقداما، وهكذا.

عمر الفاخوري

(كلمات المنفلوطي: قيلت في حفل تأبينه بالنادي الأهلي في بيروت)

مصطفى البلغاء

إخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك في عصف الرياح الناعي
هتف النعاة ضُحى فأوصد دونهم
جرح الرئيس منافذ الأسماع
من مات في فزع القيامة لم يجد
قدما تشيِّع أو حفاوة ساع
ما ضرَّ لو صبرت ركابك ساعةً
كيف الوقوف إذا أهاب الداعي؟
خل الجنائز عنك لا تحفل بها
ليس الغرور لميت بمتاع
سِرْ في لواء العبقرية وانتظم
شتى المواكب فيه والأتباع
واصعد سماء الذكر من أسبابها
واظْهرَ بفضل كالنهار مذاع
فجع البيان وأهله بمصور
لبقٍ بوشي الممتعات صَناعِ
مرموق أسباب الشَباب وإن بدت
للشيب في الفود الأحمِّ رواعي
تتخيل المنظوم في منثوره
فتراه تحت روائع الأسجاع
لم يجحد الفصحى ولم يهجم على
أسلوبها أو يُزْرِ بالأوضاع
لكن جري والعصر في مضمارها
شوطا فأحرز غاية الابداع
حر البيان قديمه وجديده
كالشمس جدة رقعة وشعاع
يونان لو بيعت بهومير لما
خسرت لعمرك صفقة المبتاع

***

اليـوم أبصرت الحـيـاة فقـل لنـا
ماذا وراء سرابـهـا اللمـاع
وصـف المـنـون فكـم قعـدت ترى لهـا
شبـحـا بكـل قرارة ويـفـاع
سكـن الأحـبـة والعـدا وفـرغـت من
حقـد الخـصـوم ومـن هوى الأشـيـاع
كم غارة شنـوا عليـك دفـعـتـهـا
تصـل الجـهـود فكـنّ خير دفـاع
والجـهـد مؤت في الحـيـاة ثمـاره
والجـهـد بعـد المـوت غير مضـاع
فإذا مضى الجـيـل المـراض صُدوره
وأتـى السـليـم جوانـب الأضـلاع
فافـزع الى الزمـن الحـكـيـمِ فعـنـده
نقـد تَنَـزُّهٍ عن هوىً ونـزاع
فإذا قضى لك أبْـتَ من شمٍّ العـلى
بثـنـيـة بَعـدت على الطلاع
وأجـل ما فوق التـراب وتـحـتـه
قلم عليـه جلالة الإجـمـاع
تلك الأنـامـل نام عنـهـن البـلى
عطلن من قلم أشـم شجـاع
والجـبـن في قلم البـليـغ نظيره
في السـيـف منـقـصـة وسـوء سمـاع

أحمد شوقي

(كلمات المنفلوطي: قيلت في رثائه بالقاهرة)

صاحب النظرات

رحم الله صاحب النظرات … غاب عنا في أحرج الأوقات
يا أمير البيان والأدب النضـ … ـر لقد كنت فخر أم اللغات
كيف غادرتنا سريعاً وعهدي … بك يا مصطفى كثير الأناة
أقفرت بعدك الأساليب واستر … خى عنان الرسائل الممتعات
جَمَحَتْ بعدك المعاني وكانت … سلسات القياد مبتدرات
وأقام البيان في كل ناد … مأتما للبدائع الرائعات
لطمت «مجدلين» بعدك خديـ … ـها وقامت قيامة «العبرات»
وانطوت رقة الشعور وكانت … سلوة البائسين والبائسات
كنت في مصر شاعراً يبهر اللبْـ … ـب بآيات شعره البَيِّنات
فهجرت الشعر السري الى النـ … ـثر فجئت الكتاب بالمعجزات
مت والناس عن مصابك في شغـ … ـل بجرح الرئيس حامي الحماة
شغلوا عن أديبهم بمنجيـ … ـهم فلم يسمعوا نداء النعاة
وأفاقوا بعد النجاة فألفوا … منزل الفضل مقفر العرصات
قد بكاك الرئيس وهو جريح … ودموع الرئيس كالرحمات
لم تلق يا فتى المحامد مالا … فلقد كنت مُغرما بالهباتِ
كم أسالت لك اليراعة سيلا … من نضار يفيض فيض الفُراتَ
لم تؤثل مما كسبت ولم تحسـ … ـب على ما أرى حساب الممات
مت عن يافع وخمس بنات … لم تخلف لها سوى الذكريات
وتراث الأديب في الشرق حزن … لبنيـه وثـورة للـرواة
لا تخف عثرة الزمان عليهم … لا ولا صولة الليالي العواتي
عين سَعْدٍ ترعاهمو بعد عين … الله فاهدأ فقد وجدت المواتي

حافظ ابراهيم

(كلمات المنفلوطي: قيلت في رثائه بالقاهرة)

خَطْبُ النابغين

الليل بعد الراحلين طويل أو ما لصبغك يا ظلام نصول
يطوي الزمان النابغين فتنطوي لذهابهم أمم ويهلك جيل
ولرب نعش غاب في طياته فتح أغر وموطن وقبيل
والناس أسياف فمنها مغمد صدىءٌ ومنها الصارم المسلول
والخطب خطب النابغين فحقه بالمشرقين تفجع وعويل
في كل يوم للجزيرة كوكب يهوي وسيف يعتريه فلول
قبر بعاصمة الرشيد وآخر في مصر حق ستوره التقبيل
بدران قد بكر الأفول عليهما ولكل بدر طلعة وأفول
ومشيعات الى القبور بموكب يرتد عنه الطرف وهو كليل
فيه رعيل من ملائكة العلا ومن الجدود الأكرمين رعيل
عيسى وأحمد والكليم وعصبة فيها الأمين المنتقى جبريل

* * *

ما للجزيرة أين نور نبوغها الزيت جفَّ وأطْفيء القنديل
بغداد شاكية ومصر مرنة والشام حاسرة القناع ثَكُولُ
تلك الأقانيم الثلاثة واحد بردى وشاطىء دجلة والنيل
قالوا السياسة قلت رغم دهاتها ظلِ العروبة في الربوع ظليل
نسب أغر وذروة مضرية نبتُ الربيع بها قناً ونصول
وعقيدة وطنية عربية فيها نصول على العدى ونطول
هذا هو الحق الصراح وإنما قول السياسة كله تدجيل

* * *

يا منكري مجد العروبة حسبكم منا فروع للعلا وأصول
لم تَخْبُ أنوار وإنما مرعى النوابغ في الشآم وبيل
ما قَلَّ فينا النابغون وإنما عدد الألى قدروا النبوغ قليل
أسهبتم بوعدكم وأطلتم ضد البلاغة ذلك التطويل
ورفعتم المنديل وهي خديعة هزم السلام ومزق المنديل
لا تنكروا حق الحياة لأمة فيها النبوغ على الحياة دليل
وتداركوا هذا السلام بطبكم وعلاجكم إنّ السلام عليلُ
طعنته أطماع السياسة طعنة نفذت فراح السلم وهو قتيل

ولقد جزعت مِنَ السياسة أنها غول وهل تهب السلامة غول؟
دين السياسةَ جاء فيه مبشرا بالمشرقين، الجيش والأسطول
قولوا لمن غصب القوي حقوقه السيف باستردادهن كفيل
وإذا تكلمت الصوارم والقِنا سكت الضجيج ولجلج المكبول
واذا علا صوت الضعيف فربما أخْفى صداه زماجر وصهيل
وأري القوى يطاع غير مخالف ويخالف القرآن والانجيل
إنْ قال صدَّقه الزمان فقوله وحي وزور حديثه تنزيل
الشرع ماسنّ القوي بسيفه فلسيفه التحريم والتحليل
والدهر أعدل من عرفت حكومة والشاهدون على الزمان عدول
دول تدول ولا مرد لحكمه يحمي الكناس ويستباح الغيل
ولربما هز اللواء مظفر ماضي العزيمة أبيض بهلول
من آل يعرب لا تلين قناته أنف أشم وساعد مفتول

محمد سليمان احمد (بدوي الجبل)

(كلمات المنفلوطي: قيلت في حفل تأبينه بحلب)

قائمة كتب المنفلوطي*

أ ـ مؤلفات

١ـ **النظرات** (مختارات مما كتبه من رسائل في جريدة «المؤيد» تحت عنوان «النظرات» وغيره من عناوين، وما كتبه من الرسائل ولم ينشره، وما نظمه من المقطوعات والقصائد الشعرية المتفرقة في الجرائد والمجلات) مطبعة المعارف ، القاهرة، ١٩١٠

٢ـ **العبرات**: مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩١٥

٣ـ **القضية المصرية من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٣**: دون تاريخ او اشارة للمطبعة او الناشر.

ب ـ ترجمات

٤ـ **مجدولين وتحت ظلال الزيزفون** (رواية ألفونس كار بعنوان «تحت أشجار الزيزفون») القاهرة، ١٩١٧

٥ـ **الانتقام** (ظهرت هذه القصة في الطبعة الأولى من «النظرات» نقلا عن مؤلف فرنسي غير محدد الاسم) المطبعة التجارية، القاهرة، ١٩١٥.

٦ـ **في سبيل التاج** (رواية فرانسوا كوبيه بذات العنوان): مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٢٠.

٧ـ **الشاعر أوْ سيرانو دي برجراك** (رواية! دمون روستان بعنوان «سيرانودي برجراك»): المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٢١

٨ـ **الفضيلة أوْ بول وفرجيني** (رواية برناردان دي سان بيير بعنوان «بول وفرجيني»): المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٢٣.

ج ـ مختارات

٩ـ **مختارات المنفلوطي**: مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩١٢

---

* اعتمدنا هنا على تواريخ الطبعات الاولى.

علي شلش

- ولد في مصر عام ١٩٣٥
- ليسانس وماجستير ودكتوراه في الصحافة والاعلام.
- له اكثر من ٢٠ كتابا في الادب والنقد وتاريخ الصحافة والفكر العربي.

- قام بالتدريس في بعض الجامعات العربية والاوربية والامريكية.
- يساهم بنشاط بارز في كثير من وسائل الاعلام والمؤتمرات العربية والدولية.

£ 9.00 net
in UK only

ـ هذا الكتاب

ظهر هذا الكتاب ـ لأول مرة ـ في صورة مقالات باسم مستعار، كتبها المنفلوطي ولم ينشرها في الصحف. ثم صودر الكتاب، ومات المنفلوطي بعد أسابيع من مصادرته، وتاه الكتاب بعدها.

وفي هذا التحقيق للكتاب يظهر النص الأصلي مزوّداً بالهوامش والشروح اللازمة، فيتيح للقرّاء والدارسين فرصة لمراجعة جانب مهم من جوانب أدب المنفلوطي، وهو الجانب السياسي المجهول.

ISBN 1 869844 76 9